


# قادة الفكر الحديث

كارل ماركس – برنارد شو – هـ . ج . ويلز

جود – جوليان هاكسلي – الدوس هاكسلي

٢

دار العلم للملايين

## اهداءات ٢٠٠٢

. أسرة د/ عبد الرحمن بدوي

جمعية د /عبد الرحمن بدوى للإبداع الثقافي

القاهرة

علم نفسك

٢

# قادة الفكر الحديث

كارل ماركس – برنارد شو – هـ. ج. ويلز
جود – جوليان هاكسلي – الدوس هاكسلي

تأليف

ج. ب. كوتس

دار العلم للملايين – بيروت

# عَلِّمْ نفسَك

سلسلة كتب مُبسّطة لِنشرِ الثقافةِ العامّة
اختار موضوعاتِها ونقلَها إلى العربيّة
**منير البعلبكي**

الطبعة الاولى

بيروت ، نيسان ، ١٩٥١

# مقدمة

●

ان الرجال الستة الذين سندرس فلسفتهم في هذا الكتاب مفكرون ضخام يمثلون الفكر الحديث أحسن تمثيل . ولعل في دراسة آثارهم دراسةً دقيقة ما يُعطي القارىء فكرة صالحة ليس من الميسور الوقوع على أفضل منها ، عن روح العصر الذي نعيش فيه . وليس معنى ذلك أنهم يصدرون كلهم عن رأي واحد . لا ، فلعل المسألة الوحيدة التي ينعقد عليها إجماعهم هي أن عالم اليوم يعاني داء قاتلاً ... أما تشخيصهم لأسباب هذا الداء ، وامـــا آراؤهم في السبيل الى علاجه فمختلفة جداً .

ومع ذلك فثمة مفهومان متعارضان ينتظمان شتات آرائهم جميعاً . هناك اولا وجهة النظر القائلة بأن آفات العالم ناشئة عن بيئة الانسان الاجتماعية ، وأنه إذا ما تغيرت هـــذه البيئة امحت تلك الآفات بالكلية . ورأس الشارحين لوجهة النظر هذه كارل ماركس ؛ وهذا هو السبب الذي من اجله افتتحنا دراستنا هذه عن الفكر الحديث بالكلام على ماركس . ذلك بأنه على الرغم مما قد يُتوهم من أن فلسفته تنتسب الى عصر سابق – باعتبار ان وفاته كانت سنة ١٨٨٣ – فالحق انه ما من مفكر كان له سلطان

على الخمسين السنة الماضية اعظم من سلطان ماركس . ولكن الناس لم يلمسوا أثر هذا السلطان – على أشدّه – إلا في ١٩١٧ ، عام الثورة الروسية التي تراءت لكثير منهم برهاناً صارخاً على صحة نظرياته . ثم إن الخلاف في الماركسية طغى على كل جدل عامّ في الفترة الفاصلة ما بين الحرب العظمى الاولى والحرب العظمى الثانية حتى ليندر أن تجد كاتباً من كتاب العصر الكبار لم يفتنه سحر ماركس ، أو لم يحمل على آرائه أعنف الحملات ...

وإنما نادى ماركس بأن أحوال الانتاج الاقتصادي تقرر الصفة العامة للمجتمع الانساني : قوانينه ، ومؤسساته ، وافكاره الاخلاقية والثقافية . وهكذا عندما تغيرت احوال الانتاج تغيّراً اساسياً ما ، كالذي تم بواسطة الاختراعات الجديدة مثلا ، لم يكن بدّ من حدوث تغير ثوري في التاريخ استغرق كل مظهر من مظاهر الحياة الانسانية . واكد ماركس ان هذا التغير إنما حدث من طريق الصراع بين الطبقات الاجتماعية . واقد انطوت احوال الانتاج الجديدة ، بالضرورة ، على ظهور طبقة اجتماعية جديدة الى مقام القوة . وإذن ، فالاشتراكي العلمي ، في نظر ماركس ، هو الرجل الذي يتعاون تعاوناً واعياً مع حركة التاريخ ، ويتحالف مع الطبقات العاملة ، لان هذه الطبقات هي القوة الصاعدة في ميدان الاصطراع على السلطة .

وكان من الطبيعي ان تثير هذه الآراء أعنف الخلاف وأشد البغضاء ضراوة . فقد علّم ماركس ، قبل كل شيء ، ان الفكرات الاخلاقية والدينية لا تنهض على اساس من حقيقة

خالدة ، وانما هي ثمرة احوال اقتصادية خاصة ليس غير . ومن هنا نزع ماركس الى ان يؤمن بان ايا سلوك يسلكه المرء يعتبر قويماً صائباً ما دام يساعـــد على تقويض النظام الرأسمالي . واذ كان ماركس يعتقد بان العنف الثوري امر محتوم ، فقـــد تراءت تعاليمه ، في أعين كثير من الناس ، وكأنها تشجع على خلق نزعة عقلية تعتبر العنف هدفاً يجب ان يُسعى اليه ، لا بلاءً يجب ان يُجتنب ويُخاف ، وهكذا استشعروا ان الماركسية تنزع الى دك آساس المجتمع الاخلاقية دكاً .

ولكن وجهة النظر المضادة لم تعدم انصاراً وشارحين . فنحن نقع عليهـا في كتابات ألدوس هاكسلي Aldous Huxley وجود C. E. M. Joad ( وسنعرض لآرائها في هذا الكتاب ) كما نقـــع عليها في كتابات نقـولا برديف Nicola Berdyaev ، وجيرالد هيرد Gerald Heard وآرثور كوستلر Arthur Koestler ، و د. هـ. لورنس D. H. Lawrence وجون ماكموري John Macmurray وجون ميدلتون موري John Middleton Murry ، ورانيهولد نيبور Reinhold Niebuhr . وانما يحس هؤلاء الكتاب ان المشكلة الرئيسية التي يتعين على الانسان مواجهتهـــا ليست اقتصادية واجتماعية ، بل اخلاقية وسيكولوجية . ذلك بان التقدم التـقني technical يقوّض المجتمعات التقليدية في سرعة عجيبة حتى لقـد أمست الثورة زيّ العصر الحاضر . ولكن الانسان لم يحرز في ميدان الحكمة تقدماً يمكنه من استعمال القوى الجديـدة التي في متناوله استعمالاً عاقلاً . ولقد ذهب ألدوس هاكسلي — أقـدر

الداعين الى الاتجاه الجديد وابعدهم اثراً – الى ان مشكلتنا اليوم تقتضينا تغيير عقول الناس وقلوبهم ، والعمل على زيادة رصيد الصلاح والخير البشريين . وعنده ان هذه الغاية لا يمكن ان تبلغ بأساليب سياسية . اما الاعتقاد بأن التغير المرجو يمكن احداثه من طريق تغيير حكومي فيعتبره هاكسلي أرفع اوهام العصر على الاطلاق ، وينص على انه وهم خطر الى حد جدير بأن يهبط بالانسان – اذا ما ظل خاضعاً لسلطانه – الى درك الانسان الميكانيكي الذي تحركه الكهرباء ، لينتهي آخر الامر الى القضاء عليه نهائيا .

ولا أمل للانسانية ، في رأي هؤلاء المفكرين ، الا باحياء لروح الدين الصحيح . ويؤمن هاكسلي بان على الغرب ان يتعلم شيئاً كثيراً من عزوف حكماء الشرق عن الدنيا ، وزهدهم في الاغراض المادية ، وقدرتهم على التحرر من سلطان الشهوة والرغبة ، وفهمهم لتلك التجربة الصوفية التي تتيح للانسان – المتفلت من قيود الشهوات – ان يجد الله في قلبه . ومن هنا قال هاكسلي بأن التشاؤم السياسي ، والانهزامية نفسها ، مبرران في عصرنا الحاضر ، حتى يطرح الرجل الحكيم كل امل في التخلص من شرور الانسانية بالوسائل السياسية .

ويجري تفكير الدكتور جود على سنن مواز لهذه الخطوط ، ولكن في شكل اقل تطرفاً . فقد مال في وقت من الاوقات الى الايمان بأن الانسان خيّر بطبعه ، فكان معظم اهتمامه يدور على محور الاصلاح الاجتماعي ، وعلى ازالة القيود غير الضرورية

المفروضة على الحرية الشخصية ، بخاصة . ولكن بعض الاحداث القريبة قادته الى الاعتقاد بأن القلب البشري ينضح بشر مخيف . فاذا هو في كتابه الحديث « الله والشر » يتكشف عن ادراك جديد ، بالنسبة اليه ، لقيمة الاختبار الديني ، ويؤكد – على عكس الماركسيين – صحة المثل الاخلاقية التقليدية .

وسائر المفكرين الذين سندرسهم في هذا الكتاب يصدرون عن احدى وجهتي النظر الرئيسيتين هاتين . فآراء برنارد شو Bernard Shaw ماركسية في جوهرها. انه يقول بأن من العبث الباطل محاربة الشرور الاجتماعية والاخلاقية بالتعاليم الديني . فالحرب ، والفقر ، والجريمة ، التي صمدت في وجه المواعظ قروناً طويلة ، لن تقوى على مقاومة المدافع . ان الكلام البليغ لا يقضي على الفقر ؛ ألذي يقضي على الفقر هو الثورة الاجتماعية .

أما ويلز H. G. Wells فاحدى قدميه في المعسكر الاول والاخرى في المعسكر الثاني . كان ابداً خصما لدوداً لماركس ، فهو يرفض مبدأ ماركس القائل بأن لطبقة العمال رسالة تاريخية هي الاستيلاء على السلطة واعادة تنظيم المجتمع . وهو يؤكد أهمية المقدرة التقنية technical في القابضين الجدد على زمام القوة السياسية ، ويعتقد بأن اعادة تنظيم المجتمع يجب ان تقع على عاتق الاخصائيين واصحاب الاستشراف outlook العلمي . وعنده ان المشكلة الأساسية التي تواجه المجتمع ليست القضاء على الرأسمالية ، ولكنها التغلب على الحرب ، وان مصدر الخطر الرئيسي هو الدولة المستقلة ذات السيادة . ومن هنا بدا لويلز ان نوعاً من

النظام الاتحادي الذي ينتظم دولَ العالم الكبرى شرط لا مفر منه لصيانة الحضارة العالمية من الدمار . ان المشكلة لا تعدو تكيّف الانسان وفقاً لمحيطه المتغير . فقد احدث العلم ثورة في حياة الانسان ، ولكن الانسان أثبت انه عاجز عن تكييف نفسه ، عقلياً ، وفقَ ذلك التغير الشامل . ومشكلة التكيّف السيكولوجي تنطوي على ثلاثة عناصر . اولاً : نحن في حاجة الى تعديل في المفاهيم الاخلاقية والدينية يشمل اطراح الاهتمام باللا اخلاقية الفردية كما يشمل التعبد « الديني » لخير الانسانية كلها . ثانياً : يجب ان يُبنى التكيف على اساس من المعرفة الوافية . ثالثاً : على الانسان ان يهجر تفكيره الراغب في تحقيق المصالح الذاتية ، وان يكتسب التفكير العلمي ، فيطرح الفكرات المدركة مقدماً ، او الفكرات المبنية على معلومات ناقصة ، ويغربل الآراء ، دائماً ، بغربال الحقيقة . ويضع جوليان هاكسلي Julian Huxley — وقد عمل الى جانب ويلز فترة طويلة — توكيداً مماثلاً على اهمية الروح العلمي والمعرفة العلمية . وهو يعلق آمالاً كباراً على تقدم العلوم الاجتماعية وعلم الاحياء ( البيولوجيا ) ، هذا التقدم الذي سيحدث ، في اعتقاد هاكسلي ، تغيراً في احوال العيش لا يقل روعة عن ذلك الذي تم تحقيقه حتى الآن من طريق العلوم الطبيعية . ومهما يكن من شيء ، ففي مؤلفات ويلز وجوليان هاكسلي الاخيرة لهجة من التحذير تتعاظم قوتها في اطراد . فقد أخبرنا ويلز ، حديثاً ، انه لا يرى بصيصاً من الامل في ان يكيف الانسان نفسه ، في الوقت

المناسب ، وفقاً لظروفه الجديدة ، بما يجعل دمـــاره الذاتي أمراً يقينياً . كذلك حذر جوليان هاكسلي الانسان من تطور العلم تطوراً غير متوازن ، قائلا انه اذا ما استمر تقدم الانسان السريع في حقل العلم ، بينا يتباطأ تطوره الاخلاقي ، فعندئـــذ يتعين على الجنس البشري ان يواجه وضعاً محفوفاً بأشد الخطر . والذي يبدو ان البشرية انتهت اليوم الى مواجهة هـــذا الوضع المخوف ، حقاً .

والواقع ان وضع التوكيد على حاجات مجتمعنا الاخلاقية والدينية نزعة جديدة بعض الشيء في الفكر الحديث ؛ وانما تحتاج كل نزعة جديدة في الفكر الى فسحة من الوقت لتتم لها قوة كافية للتأثير في الميدان الاجتماعي . وأياً ما كان فمقاليد السلطة اليوم هي في معظم الاحوال إما في ايدي الاحزاب الماركسية او في ايدي جماعات سياسية تقيم مبادئها على اساس النزعة الى اصلاح الاحوال الاجتماعية . ومع ذلك فهناك وعي متزايد للمخاطر التي قد تسفر عن اساءة استخدام السلطة ، وادراك متزايد للفكرة القائلة بأنه اذا لم تُعطَ الحرية السياسية والفكرية المكان الاول في التنظيم الاجتماعي فقد تفقد الانسانية مكاسب الحضارة التي اجتمعت لها خلال قرون متطاولة ؛ وهناك اخيراً ايمان متزايد بصحة القيم الاخلاقية التقليدية .

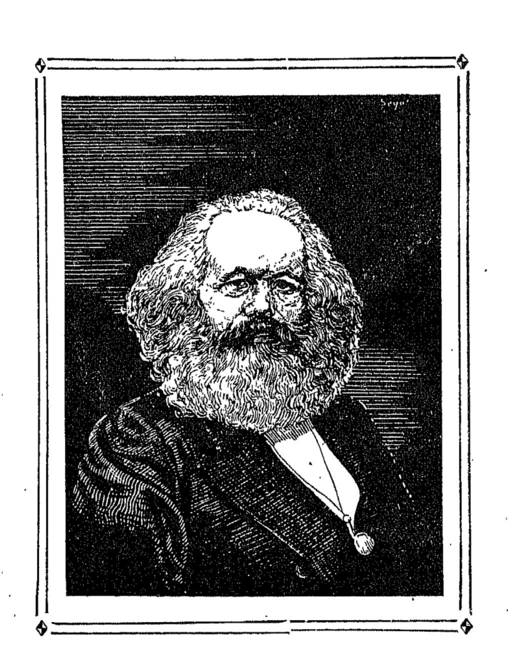
ان دراسة دقيقة للمفكرين الذين يدرسهم هـــذا الكتاب لترينا ، في وضوح ، ان الموضوع الرئيسي الذي يشغل اعظم العقول في عصرنا الحاضر هو هذا : أي اهم الاصلاح الاخلاقي ام الاصلاح

الاجتماعي،والى اي مدى ؟ وما علاقة كل منهما بالآخر ؟

هل صحيح مثلاً ما يصر عليه ألدوس هاكسلي من ان الثورة الاخلاقية يجب ان تتم قبل ان يكون في الامكان احداث أيما اصلاح اجتماعي حق ، وان كل محاولة الى فرض تغييرات اجتماعية متعمدة ، كما هو الحال اليوم ، انما تعني الاخفاق المؤكد ، ان لم نقل الخراب المؤكد ؟ وهل صحيح ما يلح عليه الماركسيون من ان الاحوال الاجتماعية تقرر طبيعة الانسان وانه ما دام الامر كذلك فالمشكلة الاساسية هي تغيير هذه الاحوال ؟ أم ان الصواب أليق بوجهة نظر تقف موقفاً وسطاً بين هاتين النظريتين؟ الذي احسبه أن مؤلفات هؤلاء الستة الاعلام خليقة بان تكون افضل مُدخل لدراسة هذه المسألة الحيوية .

ج . ب . كوتس

# ١ . كارل ماركس



ولد كارل ماركس في مدينـة تريف * في ٥ نوار ( مايو ) سنة ١٨١٨ من أبوين يهوديين . بيـد ان أباه اعتنق المسيحية وكذلك فعلت أسرته كلها . وتلقى كارل ماركس علومه في جامعتي بونّ وبرلين ؛ وفي سنة ١٨٤١ نال شهـــادة الدكتوراه في الفلسفة .

كان ماركس عالماً لامعاً ولكن آراءه المتطرفة جعلت حياة العلم الهادئـة متعذّرة بالنسبة اليه . من اجل ذلك التحق بأسرة تحرير الراينش تسايتونغ Rheinische Zeitung ، الصحيفـــة الراديكالية الراقية . ولم تكن السلطات الالمانية لتسمح في تلك الايام بنشر الآراء التقدمية الا في فترات نادرة ، فعطلت صحيفة الراينش تسايتونغ سنة ١٨٤٣ . وبعد ذلك بقليل تزوج ماركس جني فون وستفالن Jenny von Westphalen المتحـــدّرة ، من جهة أمها ، من سلالة ايرل أوف آرجيل Earl of Argyle الشهير الذي اعدم في عهد الملك جيمس الثاني .

وفي سنة ١٨٤٣ شخصَ ماركس الى باريس حيث كتب المقـالات لعدة من الصحف الراديكالية . وههنا في باريس التقى كارل ماركس بأنجلز Engles . وكان أنجلز ابنَ مثرٍ يعمل في صناعة القطن ، وكان قـد تبنى الافكار الاشتراكية . فلما تحدث الى ماركس وجد انه على أكمل الاتفاق معه على جميـع النقاط الاساسيـة في المعتقد السياسي والفلسفي . وما هي الا فترة حتى نشأت بينهما صداقة عميقة وتعاونٌ وثيق لم ينفصما طوالَ حيـاة

* مدينة المانية تقع على نهر الموزيل . ( المعرب )

ماركس . والواقع أن انجلز كثيراً ما كان يقدّم الى ماركس مساعدات مالية سخية لم يكن في ميسوره ، لولاها ، ان يواصل عمله السياسي والفلسفي .

وفي باريس اشترك ماركس في تحرير صحيفة الفوروارتس Vorwarts اليسارية ، فلم يكن من السلطة الفرنسية إلا أن اصدرت ، بناء على طلب الحكومة البروسية ، امراً بأخراجه هو وسائر محرري الجريدة من باريس . عندئذ شخص ماركس الى بروكسل حيث وافاه انجلز . وفي بروكسل اشترك ماركس وانجلز في جمعيــة شيوعيــة سرية تدعى « عصبة الحق » « The League of the Just ». وفي أواخر سنة ١٨٤٧ تعاون ماركس وانجلز على كتابة البيان ( المانيفستو ) الشيوعي الشهير، لهذه الجمعية بالذات .

اعتبر ماركس التحوّل الاجتماعي من الرأسماليــة الى الاشتراكية امراً محتوماً ، ولكنه لم يعتبر ان في الامكان تحقيق هذا التحول من غير اللجوء الى العنف والثورة . لقد اعتقد ان الثورة على وشك الوقوع في ألمانيـة ، ولكنه حسب أن فرنسة كانت اكثر استعداداً لثورة يقوم بها العمال، « وان صياح الديك الغاليّ ( الفرنسي ) سيكون نذيراً بنشوب الثورة الالمانية . »

فلما اندلعت الثورة الفرنسية سنة ١٨٤٨ قصد ماركس وانجلز الى كولوني ، معتقدين ان الوقت قد حان للعمل بسبيل اضرام الثورة في المانية . وأسسا صحيفة سياسية تولى تحريرها ماركس، باسم الـ« نوي راينش تسايتونغ» Neue Rheinische Zeitung

وجعلا تحت اسمها هذا العنوان الفرعي: لسان حال الديموقراطية. ونادت الصحيفة الجديدة بالامتناع عن دفع الضرائب ، وتنظيم المقاومة المسلحة للدولة . فكان طبيعياً أن يحال ماركس الى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . وفي نوار ( مايو ) سنة ١٨٤٩ أخرج من بروسية ،فتوجه الى باريس. ولكن السلطات الفرنسية لم تسمح له بالبقاء فيها وخيّرته بين مغادرة فرنسة أو الاقامة في مدينة صغيرة بعيدة عن العاصمة . فاختار مغادرة البلاد وشخص الى لندن حيث عاش بقية عمره .

وعانى ماركس في لندن عسراً مالياً شديداً . والحق أن انجلز – الذي كان يعمل في صناعة للقطن يملكها والده في مانشستر – انقذه غير مرة من الافلاس . ولقد وقف ماركس وقته لكتابة المقالات للصحف والمجلات ، ولتأليف كتابه الكبير « رأس المال » Das Kapital ، ولم يُنشر الجزء الاول منه حتى سنة ١٨٦٧ . كذلك قام ماركس، هنا ، بمحاولة مخفقة لأعادة تنظيم « عصبة الحق » بعد أن حوّل اسمها الى « العصبة الشيوعية » مقيماً سياستها على اساس البيان ( المانيفستو ) الشيوعي.

ومهما يكن من أمر فقد وُفق ماركس سنة ١٨٦٤ الى إقامة « الدولية الأولى » المعروفة بـ « رابطة العمال الدولية » . وتولى بالفعل ، إن لم يكن بالاسم ، رئاسة مجلسها العام ، وقد كتب هو نفسه جميع خطبها وبياناتها. وحلت « الدولية الاولى » سنة ١٨٧٦ ، بعد ان انتقلت الى اميركة سنة ١٨٧٢ ، ولكنها كانت طوال فترة من الزمن غير قصيرة ، شديدة الأثر في نشر

النظرة الماركسية في التطوّر الاجتماعي التي أمست بَعدُ أساساً نهضت عليه معظم الاحزاب السياسية اليسارية ، في بلاد القارة الاوروبية بخاصة . ليس هذا فحسب ، بل ان الحركتين الاشتراكيتين الالمانية والروسية – على الأخص – استمدتا أساسها النظري كله تقريباً من ماركس والدولية الأولى ليس غير .

وتوفي كارل ماركس في ١٤ آذار ( مارس ) سنة ١٨٨٣ ، ودفن في مقبرة « هايجيت » Highgate بلندن .

*

خضع ماركس ، في شبابه ، لتأثير هيجل الذي سيطر على الفكر الالماني في فجر القرن التاسع عشر . وكان هيجل يقول بفلسفة في التاريخ تذهب الى أن الثورة ، والتاريخ ، والمؤسسات الاجتماعية تمثل التطور التدريجي لفكرة الحرية . ولكن هذا التطور انما يحدث ، في رأي هيجل ، بواسطة عملية ديالكتيكية ، كما دعاها ، عملية تناقض . ذلك أن كل جيل يُعبر عن فكرة في الحرية تمثل أحسن ما انتهى اليه ذلك الجيل في فهمها ، ولكن هذا الفهم يكون ناقصاً بحيث لا يلبث التناقض بين الفكرة والحاجات الانسانية أن يظهر ، فيؤدي ذلك الى نشوء شكل للفكرة جديد قائم على نقض الشكل السابق أو نفيه . وانما يفرض الشكل الجديد ، بمعارضته للشكل القديم ، مركباً جديداً للفكرة ( وهو ما دعاه هيجل : النتيجة المركبة Synthesis ) وهكذا يتطور التاريخ بحسب عملية الديالكتيك على هذه

الصورة : تحدث فكرةٌ ما ، ( مبحث thesis ) فتقوم فكرة تعارضها ( مبحث مضادّ antithesis ) ثم يتضح ان هذه الاخيرة غير ملائمة فتنشأ ثالثةٌ تحدث انسجاماً بين ما هو صحيح في الفكرتين الاوليين ( نتيجة مركبة synthesis ) .

ولكنّ مذهب هيجل ، وإن يكن في شكله مذهباً تقدمياً ، انتهى الى ان يصبح في الواقع فلسفةً محافظة . ذلك بأن هيجل اعتقد – في المحلّ الاوّل – بأن أرقى تعبير اجتماعي عن فكرة الحرية بلغهُ الانسان حتى اليوم إنما يتمثل في الدولة البروسية . كذلك بشر هيجل بأنّ ما تمخض عنه التاريخ من مختلف التعبيرات الجزئية عن الحرية كانت تعبيرات غير كاملة عن الله ، او « النفس المطلقة » ، وان الانسان لن يقع على حريته وسعادته الحقيقيتين الا بالخضوع للمطلق . وهذا يعني ان هيجل يؤكد تأكيداً كبيراً فكرة النظام كأساس للحرية ، وينادي بأن على الألماني ان يجد حريته الخاصة من طريق الخضوع للدولة البروسية . وكان هذا الجانب من فلسفة هيجل بغيضاً إلى نفس ماركس ذي الآراء السياسية الراديكالية . ومن هنا وجد نفسه مسوقاً إلى مناهضة الهيجلية ، والى الاخذ بفلسفة في التاريخ تناقض فلسفة هيجل مناقضةً تامة في كثير من النواحي . ومهما يكن من أمر ، فقد ظلّ ماركس يفكر بلغة المفهوم الهيجلي للمبحث ، والمبحث المضاد ، والنتيجة المركبة ؛ كما أن مفكري المدرسة الماركسية يستعملون اليوم « الديالكتيك الهيجلي » ، أي مباديء التفكير الهيجلي ، في تفسيرهم للعمليات الطبيعية والاجتماعية معاً .

قال ماركس بأن التقدم يتمّ لا من طريق التعبيرات المتطورة عن فكرة الحرية ، ولكن من طريق الأثر الذي تتركه ظروف الحياة المادية في الانسان . وقال بأن أهمّ ما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار ، عند التفكير في تطوّر افكار الانسان ومؤسساته ، هو نظام الانتاج السائد في أيما عصر من العصور . ذلك أن نظام الانتــــاج يدعو ، في كل مرحلة من مراحل التاريخ ، إلى إنشاء عقــــائد ومؤسسات تتفق وحاجات الانسان المادية . والقانون ، والدين ، واشكال الحكومة ، وعلاقات الانسان الاجتماعية إنما تقرّرها ، في نظر ماركس ، طبيعة القوى المنتجة . ولكن ماركس اعتقد ، شأنَ هيجل ، انّ كلّ نظــــام يلد نقيضه « antithesis » وانه بنتيجة الصراع بين النظام التقليدي والقوى المعارضة التي تتولد عنه ، ينشأ نظــــام اجتماعي جديد ( النتيجة المركبة the synthesis ) .

وعلّم ماركس ايضاً ان المظهر السياسي الرئيسي للصراع بين القوى الاجتماعية التقليدية والقوى الناشئة انما يتجلى في الصراع بين الطبقات الاقتصادية . فالنظــام الاقطاعي أنجبَ ، من ذات نفسه ، طرائق في الانتاج الاقتصادي جديدة ، وأسواقاً جديدة ، وأشكالاً من التجارة جديدة . وهكذا نشأت طبقة اجتماعيــــة جديدة هي الطبقة الرأسمالية . ثم ان هذه الطبقة وجدت نفسها في حرب مع قوى المجتمع الاقطاعية وبخاصة مع الطبقـة التي كانت من قبل صاحبة السلطان ، طبقة أمراء الارض الاقطاعيــــين . واخيراً تقوّض النظام الاقطاعي كله بما فرضه من قيود على التجارة

وعلى تطور الصناعـــة تطوراً حراً ، وكتبت السيادة للنظام الرأسمالي بمؤسساته المميزة. والتحررية liberalism والعقلانية rationalism هما في نظر ماركس المعتقدان المميزان للعصر الرأسمالي ( بما ينطويان عليه من توكيد لحرية الفرد ) كما كانت الكثلكة هي المعتقد المميز للعصر الاقطاعي . وذهب ماركس الى القول بان الرأسمالية أنشأت بدورها قوى اجتماعية تعمل في اتجاه معارض لاتجاهها ، وان مناهضة الرأسمالية تجسدت في الطبقة الجديدة التي خلقها ، في ظل الرأسمالية ، نشوء الانتاج الاقتصادي التعاوني في المصانع الكبيرة ، أعني طبقة « البروليتاريا » او طبقة عمال المصانع . كذلك اعتقد ماركس بان الطبقة البروليتارية الجديدة ستنتهي بدورها الى مقام السيطرة ، لا محالة . انها ستقيم ، من غير شك ، نظاماً اشتراكياً لن يلبث ان يتحول في ما بعد الى الشيوعية ، وستكون ثقافتها المميزة قائمة على اساس من الافكار المادية والعلمية .

واعتقد ماركس بأن من المتعذر في أيما وقت بعينه التوفيق بين فكرات الطبقتين المتنازعتين بسبيل السيطرة على الدولة . واذن فلا مفر من قيام حالة حرب طبقية في المجتمعات الانسانية . ان الطبقات التي تعترض في اي عهد من العهود سبيل التطور الاجتماعي ستجد نفسها في نضال موصول الحلقات مع الطبقة التي تمثل النظام الاجتماعي الجديد الآخذ سبيله نحو القوة والرسوخ المتعاظمين شيئاً بعد شيء . ولن ينتهي هذا النضال ، في رأي ماركس ، إلا بالثورة الدامية ،وهي قاعدة لا يتطرق اليها الشذوذ

في ما خلا بعض الاحوال النادرة التي حسب ان من الجائز ان تكون قائمة في انكلترة . ومن الضروري جداً ان تعمد الطبقة التي تستولي بعد هذه الثورة، على مقاليد الحكم الى اقامة نظام ديكتاتوري والى صوغ الدولة من جديد وفقاً لمصالحها كطبقة متغلبة . ذلك ان ماركس فهم الدولة على انها ، في المحل الاول ، وسيلة الى السيطرة الطبقية : فنوع الدولة والمؤسسة الاجتماعية الذي اصطنع ليفي بحاجات الطبقة الرأسمالية ونظام الانتاج الذي اقامته لن يكون ملائماً لحاجات الطبقة البروليتارية واحوال الانتاج الجديد . بل لقد ذهب ماركس الى ابعد من ذلك فقال انه اذا عجز العمال ، بعد استيلائهم على السلطة ، عن اقامة نظام ديكتاتوري ، واذا ما عجزوا ، خلال عهد الديكتاتورية هذا ، عن تحطيم الطبقة الرأسمالية وتقويض المؤسسات الرأسمالية فعندئذ يعود النظام القديم الى التمكن موقتاً ، بعد فترة من الفوضى والحرب الاهلية .

وكتاب « رأس المال » Das Capital — وهو مناقشة طويلة شاملة للنظام الرأسمالي — مبني على فكرتين رئيسيتين . فقد عُنيَ ماركس ، أولاً ، بأن يُظهر ان الرأسمالية هي نظامٌ استغلاليّ ، وان طريقتها في الاستغلال هي ابتزاز ما دعاه ماركس « الثمن الفائض » surplus value من العمال . واتخذ ماركس اساساً لبحثه « قاعدة القيمة — العمل » التي تقول بأن الذي يقرر قيمة البضاعة ( او ثمنها ) هو مقدار ما ينطوي عليه انتاجها من عمل . وفي حين تباعُ جميع السلع باثمانها الصحيحة نجد ان الشيء الوحيد

الذي يستطيع العامل ان يبيعه ، اعني قوته العاملة ، يتميز بخاصة تجعله مختلفاً من ضروب البضاعة جميعاً . ذلك ان لقوة العامل هذه ، اذ تُنتج شتى البضائع الاخرى ، قدرة على خلق قيمة ( ثمن ) اكبر مما تملكه هي نفسها . فثمن القوة العاملة إنما يقرر - شأن سائر السلع على اختلافها - بمقدار العمل الضروري لانتاجها ، اي بمقدار العمل اللازم لتمكين العامل من ان يعيش ويحفظ نوعه . وبكلمة ثانية : ان ثمن القوة التي ينفقها العامل في عمله يساوي ، في نظر الرأسماليين ، ما يجب ان يُدفعَ اليه من أجر لا يكاد يُمسك رَمقه ، ولكن صاحب العمل يحصل خلال يوم واحد من العمل على اكثر بكثير من هذا الثمن . وهذا « الثمن الفائض » انما يسلبه الرأسمالي ، كما يقول ماركس ، من العامل ، ويبتزه منه ابتزازاً .

والعنصر الأساسي الآخر في كتاب ماركس محاولته اقامة الدليل على ان النظام الرأسمالي سيقود ، في سياق تطوره ، الى تناقضات تقضي على النظام كله لا محالة . فقوة الرأسمالية الدافعة هي ، في رأي ماركس ، البحث عن « الثمن الفائض » اي البحث عن الربح . وهذا يقود الطبقة الرأسمالية الى تجميع قواها في وحدات اكبر ، بحيث يكون في مقدورها ان تتحكم بالحياة الاقتصادية وتجعل الاستثمار اقوى وافعل . ومن هنا يتعرض الوسطاء والمنتجون الصغار لخطر الافلاس ، ويتعرض العمال لخطر البطالة تعرضاً متعاظماً مع الايام . وانما ينتج عن ذلك تدنٍّ في قوة الجماهير الشرائية ، حتى لتقل قدرة العمال

على شراء السلع كلما أنتجت بصورة اكثر فعالية . وهكذا ينزع النظـــام الرأسمالي الى ان يحدث ازمـات اقتصادية يستفحل خطرها بنمو هذا النظام ، في حين يناضل الرأسماليون - ابتغاء التخلص من هذه الأزمات - للحصول على المواد الخام والأسواق التجارية على نطاق عالمي ؛ فتصبح آسية وافريقيـــة والمحيط الهادىء مسرحاً لمنازعات الجماعات الرأسمالية تساند كلاً منها قوى الدولة التي تنتمي اليها . وهكذا تقود الرأسمالية ، لا محالة ، الى الحرب ، في رأي المذهب الماركسي . كذلك علّم ماركس انه لا سبيل الى هروب الرأسماليين من تناقضات نظامهم برغم ما سيبذلونه من جهود جبارة لتحقيق ذلـــك . ومع الايام تزداد أزمة الرأسمالية استفحالا وخطورة ، حتى يجيء وقت يبلغ فيه بؤس العمال وفقرهم غاية تدفع بهم الى الثورة عـــلى النظام وتقويضه من آساسه . واذن فالثورة البروليتارية لا بـــد واقعة ، عاجلا ام آجلا .

*

كان اثر ماركس في الفكر الحديث وفي التاريـــخ الحديث ضخماً ، وما يزال . فقد كان لينين ، مؤسس الروسيا الجديدة ، من اتباع ماركس . وهو في آثاره العديدة يأخـــذ بالفكرات الرئيسية التي بشر بها ماركس ، ثم لا يزيد على ان يُحكم تطبيقها على مشكلات عصره المتشعبة . وليس من الغلو ان نقـــول ان مذهب ماركس يتمتع في الروسيا ، اليوم ، بمثل المكانـــة التي تتمتع بها المسيحية ، من عهد بعيد ، في مختلف الدول الاوروبية .

والحزب الشيوعي الذي يتحكم عملياً بمقدرات الروسيا الجديدة ، في ظل ستالين ومكتبه السياسي Politburo ، مقيد اشد التقيد بالنظام الماركسي الذي يدرّس كعقيدة في جميع المدارس الروسية والمؤسسات التربوية الاخرى. وفي ألمانية اقتسم الحزب الاشتراكي الديموقراطي والحزب الشيوعي – وكل منهما يؤكد ان مبادئه قائمة على اساس الماركسية – كثرة اصوات الناخبين الالمان طوال عشر سنوات او تزيد بعد انقضاء الحرب العالمية الأولى ؛ بينا يرجع اكبر الفضل في ارتقـــاء هتلر سدّةَ الحكم الى كونه زعيمَ المعـــارضة للمذهب الماركسي ، والى نشوب الاختلاف الشديد بين الحزبين اليساريين الكبيرين.. وهكذا قادت الماركسية – بطريقة غير مباشرة – الى اقامـة الفاشستية الالمانية ، في حين ان هتلر مدينٌ بدكتاتوريته – بعض الشيء – للعقيدة الماركسية القائلة بدكتاتورية البروليتاريا .

ومهما يكن من أمر فلم يقتصر أثر ماركس على النزعات الاجتماعية والسياسية . فالواقع ان تأثيره تجاوز هـــذا كله الى جماع الفكر الحديث الذي يتركز جزء كبير منه حول العقيدة الماركسية إن بوصفه منبثقاً عنها او بوصفه رَجعاً ضدها . وليس من شك في ان الذي جعل للماركسية هذا النفوذ الواسع هو ، الى حدّ بعيد ، مذهبها في المادية التاريخية وما جاءت بـــه من فكرة « الايديولوجية » ideology . وهـــذا المذهب يقول بأن الفكرات التي تسود في ايما مجتمع ، وفي أيما زمن تنبثق ، في المحل الاول،عن نظام الانتاج الاقتصادي.وهذه الفكرات هي ما دعاه

ماركس « ايديولوجية »عن وضع اقتصادي بعينه. ومن هنا قال ماركس بان التحررية liberalism – كما قد رأينا – هي التعبير الخارجي عن مصالح الطبقة الرأسمالية الاقتصادية ، عن مصالح البورجوازية ؛ ويلزم عن ذلك ان الثقافة التحررية كانت خلقاً بورجوازياً يعكس حزازات الطبقة البورجوزاية وقيودها .

وبالطريقة نفسها فسّر المفكرون الماركسيون خصائص الأدب والفن الغربيين في ما بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية على ضوء تهافت الرأسمالية وتداعيها الى السقوط ، ذلك بأن المنطق الماركسي يذهب إلى انه عندما يكون نظام اجتماعي ما في حالة التفسّخ والانحلال فعندئذ تبدو بعض الأعراض المَرَضية على نتاجه الثقافي . فالخصائص التي يتكشف عنها فنّ ت.س. ايليوت T. S. Eliot و جيمس جويس James Joyce ، وجرترود ستاين Gertrude Steinوفرجينيا وولفVirginia Woolf ونزعتهم الى الأغراب والغموض ، والى الاهتمام بالطريقة والتقنية من دون الموضوع والمعاني ، وإلى الانهزامية السياسية كل اولئك راجعٌ ، في رأي الماركسيين ، الى تفسّخ الرأسمالية . كذلك يؤكد الماركسيون أن مثل هذه الظواهر يمكن ان تُرى في حقلي التصوير والموسيقى . والحق أن أثر ماركس قد قوّى من أثر فرويد في حمل الناس على أن يبحثوا عن الدوافع الباطنية ، اللاواعية ، التي تقرّر صفة الحركات الفنية والفلسفية كما تقرر شخصيات الافراد وضروب سلوكهم .

لقد نزعت الماركسية الى ايقاع التشويش في دنيا الفكر .

ذلك بأنه اذا كانت جميع المذاهب العقلية «ايديولوجيات » فعندئذ لايكون من الواضح بأي معنى من المعاني يمكن ان يُنظر الى اي منها على انه صحيح ، في حين يكون من الطبيعي ان تُعتبر الماركسية – او الاعتقاد بأن جميع المذاهب العقلية « ايديولوجيات » – هي نفسها « ايديولوجية » كغيرها ، ومن ثم فليس ما يدعو الى الاعتقاد بأنها صحيحة . وهكذا فليس ثمة من سبب يدعو الى الاعتقاد بأن ما ذهب اليه ماركس من ان جميع المذاهب العقلية هي ايديولوجيات غير صحيحة ، هو قول حق.

والواقع ان من العسير ان يتحدث المرء ، بصورة موضوعية ، عن فكر كارل ماركس ، لأن الجماعات الحديثة لا تزال مختلفة اشد الاختلاف وأعنفه في قيمة تعاليمه. فالماركسيون يعتقدون ان الروسيا ، اسبق البلدان الى اتخاذ الماركسية اساساً لحياتها الاجتماعية وتعليمها الاخلاقي ، انما تدل على الطريق لعالم الغد ، وتبين بحياتها الوطنية ومعتقدات شعبها – المعتقد المشترك الجديد الذي يحتاج اليه العالم . انهم يصرون على ان ماركس كان اول مفكر اظهر ، بتحليله لبنية المجتمعات والمجتمع الرأسمالي بخاصة ، كيف يمكن للأخاء ، والعدل ، والحرية وغيرها من المثل العليا ان تصبح مجسدة في التطبيق الاجتماعي . ليس هذا فحسب . بل انهم يؤمنون بأن مفهوم « الايديولوجية » الماركسي قد ساعدنا على ان نرى في الفكرات التقليدية - وهي دروع النظام الاجتماعي العتيق الرئيسية – مجرد انعكاسات لا واعية لمصالح الطبقات العليا الاقتصادية ، وبذلك هيأ عقول الناس لهدم المؤسسات الاجتماعية

البالية وانشاء مجتمع افضل . وهم يقولون بان اعتراف الماركسية بقيام حرب الطبقات – وما ابعد ذلك عن ان يكون مذهباً من مذاهب البغضاء – يمكن ان يُصطنع وسيلة لمواجهة المشكلات الاجتماعية مواجهة اكثر واقعية ، وهكذا توفر البشرية على نفسها كثيراً من الجهود الضائعة والدم المسفوح . اما الافكار التحررية والمسيحية ، فيذهبون الى انها تقوم في الدرجة الاولى على تعابير تَخلّقة بالية ، وانما تهدف الماركسية الى ان تُحل محل هذه الافكار دراسة علمية للمجتمع موجهة نحو اكتشاف السبيل الى تغييره من خلال تقنية مكيفة للهندسة الاجتماعية .

أما خصوم الماركسية فينكرون انها تنطوي على المبادىء التي يمكن بواسطتها بناء نظام اجتماعي صحيح . وانى يكون ذلك ممكناً ما دامت الماركسية تنكر سلامة جميع المفاهيم الاخلاقية وتعتبرها مجرد تعبيرات خارجية عن المصالح المادية ؟ وأمثال هارولد لاسكي Harold Laski من الكتّاب الذين يذهبون الى ان ايمان المستقبل يتجسد في الروسيا الحديثة انما يبنون حجتهم ، عادةً ، على اعتقادٍ ضمني بقيمة المبادىء المسيحية والتحررية ، برغم انكار الماركسية لصحتها . والحق ان خصوم الماركسية لا يؤمنون بأن الروسيا تصطنع ، باي معنى من المعاني ، المبادىء المسيحية في تنظيمها الاجتماعي ، ذاهبين الى ان البوروقراطية ( الدواوينية ) والتكنوقراسية * تتمتعان في الروسيا السوفياتية بامتيازات اقتصادية كبيرة الى حدّ يجعلها

* حكومة المهندسين والعمال الفنيين .

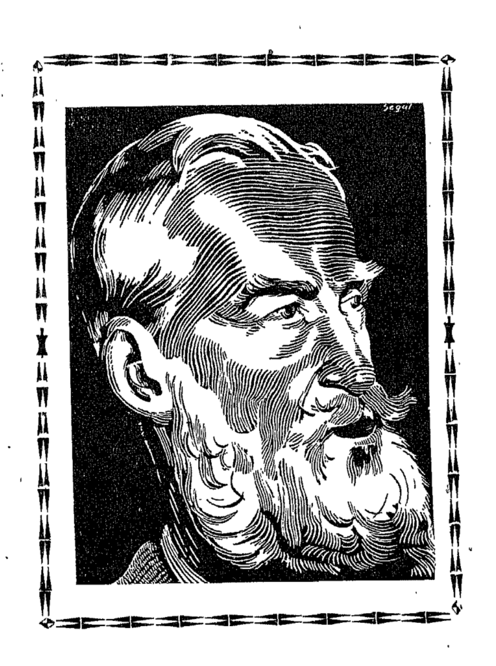
بعيدة عن العدالة، في حين ان حرية الضمير التي تقول بها المسيحية، والقيم التحررية التي تقول بحرية الرأي والاجتماع والتحرر من الاعتقال الاعتباطي لا مكان لها في الاتحـــاد السوفياتي . وهم لايستطيعون ان يروا الى الروسيا كمجتمع بريء من الاستغلال، بسبب من الامتيازات الاقتصادية البارزة الممنوحة للطبقة الحاكمة الجديدة، هذه الطبقة التي ستسعى لا محالة ــ وفقاً لمنطق الماركسية نفسها ــ الى اقامة ايديولوجية تثبت امتيازاتها وتمكّن لهـــا في الدولة ، والتي ستحاول ان تحتفظ بالديكتاتورية الحالية بوصفهــا المدافع الرئيسي عن مصالحها . ليس هـذا فحسب بل ان خصوم الماركسية ينكرون عليها ما تدّعيه من فضل تحطيم الرأسمالية ، لأن تطوّر القوى الاقتصادية ، كما اثبت ماركس ذلك ، يجعل سقوطها ( الرأسمالية ) امراً محتوماً . والحق ، ان النظـــام الاقتصادي الغالب على الرأسمالية القائمـــة اليوم يختلف اختلافاً كبيراً من الرأسماليـة التقليدية ، حتى ليشك المرء في ما اذا كان من الصواب وصف هذا النظام بأنه « رأسمالي » .

واللاماركسيون يعتبرون الماركسية خطرة لما تنزع اليه من التشكيك في المباديء الاخلاقيـة التي تُعدّ حجر الزاوية في كل حيـــاة فاضلة ، وبذلك تمهد السبيل لتقويض آساس المجتمع الاخلاقية . أضف الى ذلك ان الماركسيين ، بما يعتقدون من ان العنف هو الوسيلة التي لا يستغنى عنها للانقلاب الاجتماعي ، قـــد سيقوا الى ان يصطنعوا العنف ، لغير ما ضرورة ، بحيث يصعب عـلى اللاماركسيين ان يروا كيف تستطيع الروسيا ان تنجو

من حلقة العنف المفرغـــة التي تدور ضمنها ، وتنتقل من مجتمع مؤسس على الدكتاتورية الى نظام ديموقراطيّ حرّ .

ومهما يكن من أمر فالحكم النهـائي على الماركسية يجب ان يترك للأجيال القادمة التي سيكون في مقدورها ان تعالج المسألة معالجةً أهـدأ وأقرب الى التجرد . ولكن الذي لا سبيل الى إنكاره، بانتظار هذا الحكم النهائي، هو ان شخصية كارل ماركس وكتاباته كانت ، ولا تزال ، احدى العوامل الرئيسية التي توّجه عصرنا الحاضر .

## ۲. برنارد شو



ولد برنارد شو في دبلن،سنة ١٨٥٦ ، من أسرة حسنة الثقافة ولكنها فقـــيرة ، من أسر الطبقة المتوسطة . وكان والده رجلاً عذب النفس ، حلو النكتة،سكيراً . ولعله أعدى ابنه بحبه للهزل والسخرية. أما والدته فكانت لها شخصيتها الخاصة ، وكانت مولعة بالموسيقى ولوعاً عظيماً . والواقع ان والدي برنارد كانا أميلَ الى إهماله ، او إلى تركه وشأنه، على كل حال ، فوجد برنارد في بيته هذا حقلَ تجارب خصباً لنمو شخصيته نموا غـير خاضع لسنة او عرف ...

ويخبرنا برنارد شو انه لم يتعلم ، في المدرسة ، شيئاً ذا قيمة ؛ وانه كان عاجزاً عن ان يتعلم أيما شيء لا يستثير في نفسه الشوق ؛ فهو من اجل ذلك يعتبر من الاجرام ان نحاول إكراه الاولاد على تعلم الاشياء برغم إرادتهم . * ولكنه لا يستطيع ان يذكر الوقت الذي كان يجهل فيـــه القراءة ، فقد كان يطالع في لهفة وشوق منذ الخامسة من عمره ، او اقـــل قليلاً . حتى اذا بلغ العاشرة كان الكتاب المقدس و آثار شكسبير قد اصبحت جزءاً منه ؛ وفي الثانية عشرة انتهى الى ان يحيط بأدب ديكنز كله .

---

* ومما يذكر هنا أن احدى المدارس سألته ذات مرة أن يأذن لها في اختيار بعض مناظر من مسرحيته « جان دارك » لأدماجها في كتاب مدرسي فكان جوابه : « لا . لن أقبل بحال من الاحوال . وأنا أصب لعنتي الأبدية على كل من يجعل من آثاري كتباً مدرسية سواء في الحاضر او في المستقبل ، فيجعل التلاميذ يكرهونني كما يكرهون شكسبير. إن مسرحياتي لم يقصد بها ان تكون ادوات للتعذيب ، وكل مدرسة تسعى في طلبها .ستظفر بهذا الجواب ، ولن تظفر بغيره من جورج برنارد شو . » ( المعرب )

ومن ذلك الحين استمدّ شو ثقافته الحقيقية من مصدرين: مطالعته الاختيارية وحب الموسيقى الذي ورثه عن أمـــه . فالحق ان الموسيقى الرفيعة على اختلاف الوانها كانت تُعزف في بيته ابداً ، حتى لقـــد تمت له في سني شبابه احسنُ المعرفة بأروع الآثار الموسيقية الكلاسيكية . وهو يعتبر ما اكتسبه من فهم عميق لموسيقى موزار، بخاصة، اهم درس في تربيته كلها.

وانفق شو اربـــع سنوات او خمساً في دبلن كموظف في مكتب للايجار ولكنه وجد العمل بغيضاً الى نفسه ، فغادر دبلن الى لندن سنة ١٨٧٦؛ وهناك تمرد على جميع الجهود التي بذلها أهلوه واصدقاؤه لاقناعه بالبحث عن عمل في احدى الشركات ، مؤثراً ان يحيا على حساب امه وينصرف إلى كتابة المقالات والقصص . وفي سنواته الاولى بلندن وضع شو خمس قصص طويلة النفس ، وعرضها على الناشرين فرفضوا طبعها جميعاً . وفي ما بـــين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨٥ بلغ مجموع ما كسبه من قلمه ستة جنيهات ، خمسةٌ منها كانت ثمن اعلان كتبه عن احد الادوية المسجلة ! وقد وضع شو على لسان « تانر » في « الانسان والانسان الكامل » قوله : « قد يدع الفنان الاصيل زوجته تجوع ، واولاده يمشون حفاةً ، وامه تكدح لاعالته في سن السبعين ولكنه لا يعمل في أيما شيء غير فنه . » وليس من ريب في ان شو كان ، بحسب هذا التعريف ، فناناً اصيلا ، فقد اعتمد في معاشه على أمه فترة غير قصيرة من الزمن ، رافضاً كسب الرزق من عمل يكرهه .

وابتداء من سنة ١٨٨٥ كسب شو دخـــلا متواضعاً من

الصحافة ؛ وفي سنة ١٨٨٨ اختير ناقداً موسيقياً لجريدة « ستار » ( النجمة ) المسائية ، ثم اصبح الناقد الموسيقي لصحيفة « ذي وورلد » ( العالم ) بتعويض قدره خمسة جنيهات في الاسبوع . وانما كوّن شو اسلوبه النثري الخاص ، اول ما كونه ، في مقالاته في النقد الموسيقي . فقد هاجم في غير ما هوادة ولا استبقاء جميع الذين تمتعوا في عصره بشهرة موسيقية عريضة ، مدافعاً في الوقت نفسه عن فاجنر الذي كان اساتذة الموسيقى ونقادها المحافظون يعتبرونه رجلا مخبولا . والحق انه كان يكتب مقالاته هذه بروح من المرح غير المسؤول ، والاعتزاز الذي لا يعرف الخجل بمواهبه وكفاياته . ولسنا نحسب ان ثمة كاتباً استطاع ان يجعل النقد الموسيقي فناً سائغ القراءة بقدر ما فعل برنارد شو .

ومن سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٨٨ تولى شو ناحية النقد المسرحي في صحيفة الـ « ستارداي ريفيو » Saturday Review وكان فرانك هاريس رئيساً لتحريرها . وقد نالت مقالاته في نقد المسرح شهرة هي بها جديرة . وانما هاجم فيها كبار الممثلين والمسرحيين في عصره ، وبخاصة السير هنري ارفنج Sir Henry Irving والسير آرثر بينرو Sir Arthur Pinero ، مهاجمة بالغة الجرأة ؛ ولكن اهم ما لفت الانظار اليه نقده لشكسبير . ذلك بان هجومه على شكسبير بدا في اعين الناس - بالنسبة الى اعجابهم العظيم بشاعر الانكليز الاكبر — وكأنه ضرب من الكفر . فهو يقول في احدى مقالاته هذه ما نصه : « ليس ثمة ، باستثناء

هوميروس ، كاتب واسع الشهرة أستطيع ان أكنّ له احتقاراً كلياً بقدر ما احتقر شكسبير حين اقارن ما بين عقلي وعقله . ان فروغ صبري عند قراءته ايبلغ في بعض الاحيان مبلغاً يحملني على ان اتمنى لو استطيع ان انقب قبره وارجمه بالحجارة، عالماً وانا افعل ذلك مقدار عجزه وعجز المتعبدين له عن فهم أيما شكل آخر، اقل وضوحاً ، من اشكال الاهانة . فأنا حين أقرأ « سيمبلين » * Cymbeline وافكر في جوته ، وفاغنر، وإبسن انما أعرّض لأشد الخطر ما اعتدته ـ بفضل استشعاري للمسؤولية العامة طوال سنوات متعددة ـ من فضيلة التروي والاعتدال في اصدار الاحكام . » ويقول ايضاً : « هناك لحظات يتساءل فيها المرء ، في يأس ، لماذا قدر لمسرحنا ان يمنى بهذا السارق « الخالد» لقصص الادباء الآخرين ، وأفكارهم ، بطنطنته البلاغية المريعة ، وكلماته المأثورة التي لاتطاق ، وتحويله الكاذب لأدق مشاكل الحياة الى اشياء عادية لايصبر عليها حتى ابعد الناس عن التذوق الفني ، وبعد ادبه بصورة لاتصدق عن الايحاء، ومزاوجته الموجزة القوية بين البديهة الحاضرة والعقم الفكري التام ، وعجزه بالتالي عن الارتفاع الى مستوى أعلى من مستوى اشد النظارة جهالة الا عندما يقول شيئاً هو من البساطة بمكان بحيث لا يستطيع اطيب قرائه قلباً ان يتصور ان رجلاً عظيما مثله يقصد فعلاً الى ان يخاطبه بلغة العجائز . » ومهما يكن من امر فقد لاحظ شو في فقرة اخرى : « ان شكسبير قد عمّر أكثر مما عمر آلاف من

* احدى مسرحيات شكسبير . ( المعرب )

المفكرين الآخرين ، وسيعيش اكثر من ألف مفكر آخر .
فموهبته في سرد القصة ( شرطَ ان يسمعها أولاً من شخص آخر ) ؛
وسيطرتهُ الهائلة على اللغة ، هذه السيطرة التي تتجلى في إساءة
استعماله إياها اساءةً باردة لا معنى لها بقدر ما تتجلى في معجزاته
التعبيرية ؛ وظَرْفُه وفكاهته ، ومقدرته على رسم الشخصيات
الغريبة ؛ وذخيرته العجيبة الهائلة من الطاقة الحيوية . . . كل
أولئك تمكنه من ان يُسلينا بفعالية فائقة حتى لتصبح المشاهد
الخيالية والشخصيات التي خلقها اكثر واقعية ، في نظرنا ، من
الحياة الحقيقية .»

وعلى الرغم من عنف شو في بعض نقده هذا فقد كان في
قرارة نفسه محباً لشكسبير معجباً بـه حتى لقد احتج اعنف
الاحتجاج على ما جرت بـه عادة العصر من اختصار وتعديل
لمسرحيات شكسبير ، مؤكداً ضرورة تمثيلها كاملةً . ولكن
شو يعتقد ان المزاج والافكار الفلسفية التي تعبّر عنها وتنطوي
عليها مسرحيات شكسبير هي على مستوى أدنى بكثير من
مستوى مسرحيات إبسن التي كان شو يسعى لأن يعرّف الجمهور
البريطاني بها . ومن أحفل آثار شو الاولى بالفائدة كتابه الموسوم
بـ « جوهر الابسينية » Quintessence of Ibsenism الذي كان
محاولة لتفسير ادب ابسن وفنه المسرحي تفسيراً واضحاً .

ولم تكن مقالات شو في النقد المسرحي قطعاً ادبية رائعة
فحسب ، بل لقد تكشفت عن ولادة مدرسة فكرية جديدة في
المسرح البريطاني . ذلك بأن المسرحية الدارجة في ذلك العصر

كانت « المسرحية الحسنة الحبك » ، وهي ضرب من التمثيلية التي تخلو من أيما هدف اجتماعي او ديني او فلسفي والتي تستمد قصصها من دوائر الشرطة ومحاكم الطلاق . وانمـــا تعتمد قيمتها ، اذا كانت لها قيمةٌ ما ، على المعالجة البارعـة للعقدة ، وعلى البلوغ بسلسلة متلاحقة من الحوادث المتعاقبة في مجموعـــة من المناظر المحكمة الوضع الى ذروة القصة ، ومن ثم الى حلّ العقــدة حلاً مُرضياً ــ عـلى ما نرى في احسن مسرحيـات بنرو Pinero ، وسكرايب Scribe ، وهنري آرثر جونز Henry Arthur Jones وقد قصدَ ابسن وشو الى ان يُدخلا على المسرحيـة نقداً معاصراً عالياً للحياة الاجتماعية .

وكان شو قد استمع ، سنة ١٨٨٢ الى محاضرة لهنري جورج ، وقرأ كتابه « التقدم والفقر » ، فآمن بالمبادىء الاشتراكية . وفي السنة نفسها قرأ كتاب « رأس المال » لكارل ماركس فتركت هذه القراءة اثراً ابعد في نفسه . وفي سنة ١٨٨٤ انضم الى الجمعية الفابية Fabian Society ، وعملَ في سبيل الاشتراكية في تفانٍ بالغ جعله يخطب في السنوات الاثنتي عشرة الاولى من انتمائه اليها في اكثر من الف اجتماعٍ عـامّ . والواقع ان المران الموصول خلق من شو واحـداً من اعظم الخطباء في عصره . حتى اذا تمت له شهرةٌ واسعة لم ينقطع عن الخطابة في الاجتماعـــات العامة ، كبيرها وصغيرهـا ، بل واصل ذلك كما واصل الخـــدمة في عددٍ من الجمعيات لا يحصى . واذا كانت الجمعية الفابية قـد لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الفكر السياسي الانكليزي فليس من شك

في ان الفضل الاكبر في ذلك راجع الى عبقرية شو وعبقرية صديقيه الحميمين سدني وبياتريس وب Sidney and Beatrice Webb

ولم تُخرَج مسرحية شو الاولى ، « بيوت الايامي » Widower's Houses حتى سنة ١٨٩٢ ، على الرغم من انه قام بجهد مُخفق من التعاون المسرحي مع وليم آرتشر قبل ذلك بسبع سنوات. وكان موضوع المسرحية يدور على اقطاعية احياء العمال القذرة ، ومن هنا تركت صدىً بعيداً في نفوس النظارة الذين لم يألفوا ، من قبل ، مناقشةَ المشكلات الاجتماعية على المسرح .

ومن الخليق بالذكر ان شو ، اعظم المسرحيين في العصر الحديث ، كتب جميع مسرحياته الاولى بوحي خارجي وبضغط من وليم آرتشر William Archer و ج . ت . غراين J. T. Grein وجانت آدتشارتش Janet Adchurch وبياتريس وب وغيرهم ، ولكنه لم يكسب ، برغم ذلك ، فلساً واحداً من «مسرحياته الثلاث الاولى. ثم انه نشر في ما بعد هذه المسرحيات الثلاث – « بيوت الايامى »، و « زير النساء » The Philanderer و «صناعة مسز وارن» Mrs. Warren's Profession تحت عنوان « مسرحيات مكدرة » . وانما اختار لها هذا العنوان لانها كانت محاولات الى لفت الانتباه العام الى بعض المظاهر البشعة في الحياة الاجتماعية البريطانية.

وانصرف شو ، منذ ذلك الحين ، الى التأليف المسرحي ؛ وقد سعى في آثاره التالية لان يقدم الى الجمهور ما يبتغيه ، فكتب

تمثيليات خفيفة مسلية تتسع ادوارها لاصحاب الشعبية من النجوم اللامعين . وأياً ما كان ، فلم تنل أي من هـــذه المسرحيات « السارّة » اكثر من نجاح متوسط عند تمثيلها لاول مرة . فقليل من النقاد استطاعوا ان يفهموا مقاصـــد شو ، في حين هزت دعابته النظارة وأزعجتهم باكثر مما أضحكتهم . وكانت حيلتـه المفضلة في مسرحياته الاولى هذه تقوم على مجرّد الهزء بالتقاليـد الاجتماعيـــة الراسخة . فمسرحية « السلاح والرجـــل » Arms and the Man صبّت جام احتقارها على المعتقد الشائع بان مجرد التجاذب الرومانتيكي بين شاب جميل وشابة جميـلة يشكل اساساً كافياً للسعادة الزوجيـة . وهكذا نرى البطلة ، وقد استفاقت على تفاهة العنصر الرومانتيكي وبطلانه ، تؤثر على البطل الفخور جندياً خشناً ذا مظهر خارجي غير مشجع . وفي « كانديدا » Candida يسخر شو من الاعتقاد القائل بأنه اذا ما تودد الى المرأة رجل غير زوجها فيتعين عليها ان ترفض عرضه بازدراء . صحيح أن « كانديدا » ظلّت وفيـة لعهد زوجها ، ولكنها لم تفعل لأن العُرْف يقضي بذلك بل لأنهـا ادركت أنه ، برغم قوتـــه الظاهرة ، محتاجٌ إليها اكثر من الشاعر مارتشبانكس الذي يملك قوةً وشجاعـةً داخليتين تعوزان منافسَه . أما مسرحية « إنكَ لا تستطيع ان تحزر أبداً » You Never Can Tell فتتهكم على ما اصطلح عليه الناس من أن على الأبناء واجب الاحترام والطاعة نحو الآباء ، لا لشيء إلا لأنهم آباؤهم . والحقّ أن المسرحيات « السارّة » ، عـلى خفتها

ومرحها ، تسجّل بدء الهجوم الذي سيشنّه شو على جمّاع التقاليد الاجتماعية والاخلاقية التي كانت تسيطر على الشعب البريطاني في العصر الفكتوري .

ومنعت الرقابة إحدى مسرحيات شو الأولى ، « صناعة مسز وارن » ، التي عالجت ببراعة بالغة وبنَفَس مبتكر لم يُسبق الى مثله ، مسألة البغاء الشائكة . كذلك منعت الرقابة بعدُ مسرحية اخرى لشو دعاها « مطلع بلانكو بوسنيت » . وقد مَثلَ شو أمام لجنة برلمانية عُينت للبحث في هذا المنع فوصف نفسه بأنه كاتب مسرحيات غير اخلاقية ،ذاهباً الى أن امثاله من الكتاب يجب أن يصانوا من الاضطهاد إذا ماطمعنا في ان نرفع ،في يوم من الايام ، مستوى الناس الاخلاقي. وإنما عنى شو ، حين الصق بنفسه هذا الوصف ، انه كاتبٌ يهدف الى مهاجمة الاخلاق ، بمعناها التقليدي ، على ضوء مجموعةٍ من القيم اجلّ واسمى . والواقع ان معرفة ذلك هي خير مفتاحٍ لتفسير ادب الرجل المسرحي وفهمه.

وفي اواخر صيف ١٨٩٦ التقى شو – في حفلة سمر أقامتها جمعية الفابيان – بالآنسة شارلوت بين تونشاند . Payne — Townshend ، وكانت إيرلندية موسرةً ذات حسٍّ اجتماعي مُرْهف حدا بها الى ان تتطوع للدعوة الى الاشتراكية مع الجمعية الفابية . فاحبها شو واحبته . وفي غرة حزيران سنة ١٨٩٨ جمعت ما بينهما رابطة الزواج . ولكن شو ما لبث ان اصيب بانحطاطٍ عصبيّ خطير ، فكانت اولى مهام مسز شو ، في حياتها الجديدة ، ان تعكف على تمريضه حتى يستعيد صحته . وبرغم هذه

البداءة المشؤومة ، فقد اثبت هذا الزواج انه كان سعيداً الى ابعد الحدود .

كان شو ، في مسرحياته الاولى ، يجرّب ويختبر ، ويتلمس طريقه . وما هي إلا فترة حتى استشعر سيطرته على صناعته ، وأحس ان في ميسوره ان يقتحم موضوعاً ضخما . فلما كانت سنة ١٩٠٣ نشر « الانسان والانسان الكامل » Man and Superman التي قامت « جمعية المسرح » بتمثيلها لاول مرة سنة ١٩٠٥ . والحقّ انها كانت محاولةً لبسط فلسفة شو وعقيدته الدينية في شكل تمثيلي . وقد وضع شو آراءه الخاصة هذه على لسان « دون جوان » في الفصل الثالث الذي ينطوي على نقاشٍ طويل افترض المؤلف انه دار بين دون جوان والشيطان ، في الجحيم . ويحصل ذلك ان دون جوان يبشر بـدين « التطوّر الخـلاق » Creative Evolution . انه يعتبر الحياة حافزاً خلاقاً ( دعاه شو « قوة الحياة » ) يسعى ابداً الى ان يعـبر عن نفسه في اشكال جديدة . وقوة الحياة هذه عمياء ، تتقدم بطريقة التجربة والخطأ ، وترتكب اخطاءً فاحشة . وهي تقوم بتجاربها في اتجاه خاص ، وتغير رأيها بين الفينة والفينة ، وتحطم مخلوقاتها نفسها . فقد جربت القوةَ البدنية وعظمة الجسد غير العاقلة ، ولكنّ مخلوقات ما قبل التاريخ الهائلة انقرضت كلها . ان ما كانت تهدف اليه « قوة الحياة » هو العقل ، ذلك العضو الذي تستطيع بواسطته انْ تنتهي الى وعي الذات وفهم الذات . لقد كانت تُعدّ « عيناً عقلية » قادرةً على ادراك الغرض من الحياة بحيث يستطيع المرء ان يعمل

في سبيله بدلاً من ان يخذله ويحبطه بالنضال من اجـــل اهداف شخصية قصيرة النظر ، كما هــو الحال اليوم . وهنا يعلن دون جوان ان ذلـك الغرض هـــو خلق « الانسان الكامل » ، والسمو بالجنس البشري الى مراتب نحسبها اليوم فوق مستوى البشر ، وبخاصة خلق الكائن الواعي وعياً كاملا ، الكائن الذي تحرر من عبودية الغريزة ، وامسى سيد مقدراته .

ويستطرد دون جوان : « اقول لك انني ما دمت قادراً على ان اتصور شيئاً افضل مني فلن تهدأ نفسي حتى أكافح في سبيـل اخراجه الى الوجود او افساح الطريق له . ذلـــك هو ناموس حياتي . ذلك ما يوقعه في نفسي طموح الحياة الموصول الى تنظيم ارقى ، والى وعي للذات اوسع واعمق واكثف ، والى فهـــم للذات اوضح . وسلطان هـذه الغاية عليّ هو الذي حوّل الحب عندي الى مجرد لذة آنية ، وجعـل الفن في نظري مجرد تثقيف لمواهبي ، والدينَ مجرد عذر يبرر الكسل لانه اقام إلها يلقي بنظره الى العالم ويرى انه حسن ، مقابل غريزتي التي تنظر الى العـــالم وترى ان في الامكان تحسينه . »

وترمز الجنة والجحيم ، في مسرحية شو ، الى ضروب مختلفـة من الفلسفة . فالجحيم هو مباءة الخياليين والباحثين عن السعادة ؛ وهو البديل الاوحد من الجنة التي هي نُزل اصحاب الواقـــع العمليين . يقول دون جوان : « في الجنة ، يعيش المرء ويعمـل بدلا من ان يلعب ويدّعي . انه يواجه الاشياء كما هي؛وان عزيمته ومخاطرته هما مناط فخره ومجده . »

وكان شو يطبق ، من كل قلبه ، فلسفته الخاصة . فقد وقف حياته على الاهداف السامية خدمة لما كان يدعوه « قوة الحياة » . وهو يذهب الى ان السعادة الحق كامنة في مثل هذه الخدمة . « تلك بهجة الحياة الحقيقية : ان تجند نفسك لمسعى تعتقد انت نفسك انه سام رفيع ، وان تستهلك طاقاتك قبل ان تُلقى فوق ركام المهملات ؛ وان تكون قوة من قوى الطبيعة بدلاً من ان تكون كتلة انانية صغيرة من الامراض والمظالم تتشكى ابداً ان العالم لا يقف جهده كله لجعلك سعيداً . »

اما الفصول الثلاثة الباقية من « الانسان والانسان الكامل » فهجوم على المعالجة الرومانتيكية لموضوع الحب ، الشائعة شيوعاً كبيراً في المسرح البريطاني لذلك العهد . ويصر شو على ان غرَض الحب الجنسي ليس تحقيق السعادة الرومانتيكية للمحبين ، كما يتراءى للمرء من قراءة المسرحيات الانكليزية . وانما يشير دون جوان الى هدف رئيسي هو السمو بالجنس البشري الى مراتب ارفع ، هدف تحجبه اليوم « سحابة من الحب والرومانتيكية وتكلف العفة والتعنت » . فأوكتافيوس ، في مسرحية شو ، ينسج خيالات حول المرأة خادعة الذات وليس يفكر في الحب الا بلغة رومانتيكية . أما تانر ، الواقعي ، فيدرك أن غريزة « آن » تدفعها الى الزواج منه ، ولكنه ينظر الى الزواج لا بوصفه متعة حسية ، ولكن بوصفه تضحية للحرية ، ويقاوم « آن » المصممة ، اشد التصميم وأوثقه ، على ان تطارده وتقتنصه . واخيراً يقع تانر في الشرك لان « قوة الحياة تسحره »

ولكنه يعلن في وقار ، انه ليس سعيداً في ما اتخـذ من قرار ، وان ما اقدم عليه حين وافق على الزواج من « آن » ليس غـير « التخلي عن السعادة، والتنازل عن الحرية والهدوء، والتخلي فوق ذلك كله عن الامكانيات الرومانتيكية التي ينطوي عليها المستقبل المجهول ، من اجل الاهتمام ببيت وأسرة . » وقد تبدو الذروة climax في « الانسان والانسان الكامل » مضحكة او تكاد ، ولكن هدف شو — وهو اظهار حقيقة الجنس والزواج لا التوهم والافتتان اللذين يحجبان عادة صفتها الصحيحة وغرضها الحق — واضح وجدير بالاطراء .

ومن ابرع مسرحيات شو مسرحيـــة « قيصر وكليوباترة » Caesar and Cleopatra التي مثلت اول مرة سنة ١٩٠٦ ، وهي لا تعدو ان تكون ، الى حد ما ، تجربة يقوم بها شو في موضوع الانسان الكامل . وقيصر هو في المسرحية ، الانسان الكامـل ؛ والعمل الرئيسي فيها يقوم على تطور شخصية كليوباترة تحت تأثيره وسلطانه . فهو يعلمها اول ما يعلمها ان تطـّرح ضعفها ومخاوفهـا الصبيانية ، وتفرض ارادتهـــا كملكة . حتى اذا نمت واضطلعت بتبعاتها حاولت ان تفهم قيصر وتقلده. فهي تطرح جميع تهاويل السلطة في معاملتها لمرافقيها الا حين يتعين عليها ان تصدر امراً جازماً ؛ وهي تخوض معهم في لغو من الحديث في جـــو ودي خالص . بيد انها تظل برغم ذلك عاجزة عن كبح جماح اطوارها السيئة وشهوتها الى الانتقام . اما قيصر فلا يفقد مرحه ابداً ؛ وهو دائماً في نجوة من سورة الغيظ والانتقام . وأياً مـا كان ،

فهو يُظهر استياء كبيراً عند ما تطلق كليوباترة العنان لغضبها على بلوتاينوس وتصدر امرها بقتله . وفي ختام المسرحية تكون كليوباترة قد تعلمت معظم الدروس التي لقنها قيصر اياها. ويصور شو قيصر رجلا بريئاً من الخداع النفسي والاخلاق بمفهومها التقليدي ، فهو يصدر عن فطرة وطبيعة في صغير الاشياء وكبيرها . ان حياته وقفٌ على العمل . « وهو يعمل ما يجب ان يُعمل ، وليس لديه متسع من الوقت للاهتمام بنفسه . وليست هذه سعادة ، ولكنها عظمة . » وان له ، اخيراً ، نواحي ضعفه الصغيرة المحببة . فهو لا يحب ان يفكر في ان السن تتقدم به ، وهو معتاد ان يكرر نفسه في خطبه ، وهو لا يبالي بالمظاهر ، سواء ما اتصل منها باللباس او غيره. وقد لامه على ذلك البريطاني، بريتانوس ، الذي يتحلى بفضيلة واحدة هي الرصانة والوقار .

و « قيصر وكليوباترة » مسرحية خليقة بالاعجاب من نواح متعددة . فقد استحدثت طريقة جديدة في معالجة الموضوعات التاريخية ، طريقة طبيعية ، غير رسمية ، فكاهية ، ولكنها تضج بالمعاني . انها تشتمل على بعض المشاهد الرائعة المصورة للشخصية ، وبخاصة مشهد « بريتانوس » ومشهد « فاتاتيتا » ؛ أما كليوباترة في هذه المسرحية فصورة فنية مدروسة تأخذ بمجامع القلوب . وقد ذهب بعضهم الى القول بانه سواء اعتبرنا شخصية قيصر ، كما تبدو في المسرحية ، صورة حسنة للانسان الكامل ام لا ، فليس من شك في انها صورة رائعة عن شو نفسه . وتنطوي الرواية على كثير من المناظر البارعة والجمل المبدعة . وبكلمة ، فليس بين

تمثيليات شو تمثيلية اقدر على ان تحتفظ بمكانتهـــا على المسرح البريطاني ، من « قيصر وكليوباترة » .

واظهرت « الميجور بربارة » Major Barbara مقدرة شو على الابداع في معالجة الموضوعات السياسية بقـــدر ما اظهرت مسرحية « الانسان والانسان الكامل » و « قيصر وكليوباترة » عظمته في معالجة الموضوعات الدينية ، والدرامة التاريخية ، على التعاقب . والميجر بربارة سيدة غنية شابة تتخلى عن مركزها الارستوقراطي لتحيا على جنيه استرليني واحد تتقاضاه اسبوعياً بوصفها « ميجر » في « جيش الخلاص » ... وتحتك بربارة ، لاول مرة منذ طفولتها ، بأبيها السير أندرو أندر شافت ، وهو مليونير وصاحب مصنع كبـير للاسلحة . ويتعهد السير اندرو بأن يقصد الى « مأوى الجيش » ليرى الى عمـل بربارة كمنقذة للأرواح اذا ما وعدته بزيارة مصانعه المدفعية ...

وفي المأوى ، كان ولد جانف من ابناء الشوارع ، يدعى بِل والكر ، قد ضرب فتاةً من فتيات جيش الانقاذ وقطعَ شفتها . ويثير حديث بربارة الصريح معـــه ضميره القلق فيعرض عليها ان يدفع جنيهاً واحداً كعقوبة على جريمته . ولكن بربارة ترفض ان تبيعه خلاصه . « نحن نريد نفسك يا بِل » ، ولن نأخذ شيئاً غير ذلك . » وكان بودجر ، احد منتجي الويسكي ، قد عرضَ ان يتبرع للجيش بخمسة آلاف جنيه اذا ما تبرع خمسة رجال آخرين بمبلغ مماثل يدفع كل منهم خُمسه ؛ فلم يكن من اندر شافت الا ان وعد بالتبرع بهـــذا المبلغ كله . عندئذ تشعر

بربارة أن من واجب « جيش الخلاص » ان يرفض قبول المال المكسوب من صنع المدافع وبيع الويسكي . وتعتبر ان بودجر يريد ان يشتري خلاصه ثم ينقلب لاستئناف حياة الشر التي عاشها من قبل ، كما اراد بِل والكر ان يشتري حريته من الجريمة بعشرين قطعة من الفضة ، سواء بسواء . ولكن فيما كانت بربارة ترفض الجنيه الذي اقترح بلْ دفعه كان « جيش الخلاص » يتقبل آلاف بودجر واندر شافت العشرة ....

وعندما تزور بربارة مصنع أندرشافت يبسط لها هذا الاخير فلسفته قائلا : « ان ثمة شيئين ضروريين للخلاص : المال والبارود . » لقد كان اندرشافت رجلا فقيراً في الطرف الشرقي من لندن . « لقد تعلقتُ باهداب الفضيلة وجعت حتى كان يوم اقسمت فيه لأكوننّ رجلا حراً ممتليء المعدة ، مهما كلفني الأمر — فليس يستطيع ان يثنيني عن هذه الخطة لا المنطق ولا الاخلاق ولا ارواح الرجال الآخرين ، لن يثنيني عن هذه الخطة غير رصاصة تصيب مني مقتلا . لقد قلت : انكِ ستجوعين قبل ان اجوع ، وبهذه الكلمة اصبحتُ حراً وعظيما . كنت رجلا خطراً حتى الساعة التي حزمتُ فيها امري . اما الآن فأنا شخص نافع ، انيس ، محب للخير . » لقد ذهب اندرشافت الى ان الفقر اقبح الجرائم فهو يهدم مدناً بكاملها ، وينشر اوبئة فظيعة ، ويميت نفوس الذين يتفق ان تقع ابصارهم عليه ، او ان يسمعوه او يشتموه . « ان ما تدعونه جريمة ليس شيئاً ؛ قتلُ امريء هنا وسرقة هناك ... اي بأس في ذلك كله ؟ ليس في لندن خمسون

مجرماً محترفاً اصيلا . ولكن ثمة ملايين من فقراء الناس،ووضعاء الناس ، وقذري الناس ، واولئك الذين يعانون اعظم الاذى من سوء التغذية ، وسوء اللباس . انهم يدسون لنا السم اخلاقيـــاً وجسمانياً ... المجانين وحدهم يخافون الجريمة ؛ ولكننا جميعـــاً نخشى الفقر . آه ، انكم تتحدثون عن شريركم الخليع نصف المنقذ في وست هام ؛ وتتهمونني بافساده من جديد . حسناً ، ايتوني به الى هنا وسأعيد لكم روحه الى حظيرة الخلاص . . . لا بالكلمات والاحلام ، ولكن بثمانية وثلاثـين شلناً في كل اسبوع ، وبيت صحي في شارع محترم ، ووظيفة دائمة . »

ويخبر اندرشافت الميجور بربارة بانه انقذها من الآثام السبعة المميتة : الطعام ، واللباس ، والتدفئـــة ، واجرة المسكن ، والضرائب ،والوقار،والابناء. تلك حجار رحى سبعة لا يستطيع رفعها عن عنق الانسان غير المـال ، وليس في ميسور الروح ان تسمو الا بعد رفع هذه الحجارة الثقال. « لقد رفعتها عن روحك. لقد مكنت بربارة من ان تصبح الميجور بربارة ! »

كان هدف آندرشافت القوة الروحية ، وهو يزعم ان كلا من البارود والمال ضروري لبلوغها . وعلى الرجال الباحثين عن القوة الروحية ان يسيطروا على البارود ويصطنعوه لأغراضهم ، خشية ان يُصطنع ضدهم ... يجب ان تعلن الحرب على الفقر والعبودية والحرب جميعاً . « لقد صمدت في وجـــه مواعظكم ومقالاتكم الرئيسية طوال اجيال وقرون ؛ ولكنها لن تقوى على الصمود في وجه مدافعي المدمرة ! »

والنظرية السياسية التي تصدر عنها مسرحية « الميجور بربارة » نظرية ماركسية في جوهرها . فهي تفهم الاخلاق على انها تعبير عن الاحوال المادية ، في حين تفترض ان القوة ضرورية لاقامة بناء اجتماعي افضل .

ومن ذلك الحين وشو منصرف لبث آرائه بمختلف الوسائل : من خلال مقدماته الشهيرة ، ومن خلال كتاباته الاخرى ، ومن خلال مسرحياته . فقد اخذ ، ابتداء من هـــذه الفترة ، يصدّر مسرحياته بمقدمات اطول في بعض الاحيـــان من المسرحيات نفسها ، مقدمات هي روائع من النثر الفني ، بقدر ما هي مباحث تزخر بالحجج البارعة . فمسرحيته الكبرى التي عالج فيها فكرة استغلال الصناعة الطبية استغلالا قبيحـــاً ( حيرة الطبيب ) Doctor's Dilemma مصدرة ، مثلا ، بمقـال عن الاطباء يستغرق اربعاً وتسعين صفحة . ومسرحيته « رواية فاني الاولى «Fanny's First Play متوجة بمقدمة ذات مئة وست عشرة صفحـــة عن العلاقات بين الآباء والابناء . ليس هذا فحسب ، بل ان ثمة بحثاً طويلا في الزواج في صدر مسرحيته « يتزوج «Getting Married كذلك يتقدم مسرحية « مطلع بلانكو بوسنيت » التي منعهـــا الرقيب بحث معجب في الرقابة على المطبوعات ؛ في حين تشكل مقدمة « اندروكليس والاسد » دراسة للمسيحية مؤلفـة من مئة واربع عشرة صفحة .

و « اندروكليس والاسد » تعتبر هي و « بيجماليون » اروع مسرحيتين كتبهما شو في المرحلة الوسطى من نشاطه المسرحي .

فأما الاولى فصورة للنصارى الاولين يمتزج فيها الجد بالهزل ، واما الاخرى فتظهر كيف حوّل عالم عبقري بالاصوات ، بائعة زهور لندنية الى سيدة تتحدث حديث الدوقات وتتخلق بأخلاقهن . ومُثلت « بيجماليون » اول ما مثلت على « مسرح جلالته » في ١١ نيسان سنة ١٩١٢ ، وقد أسند الدور الرئيسي فيها الى الممثلة الساحرة السيدة باتريك كامبل ، فنجحت نجاحاً ضخماً ثم أخرجت في شريط سينمائي فحظيت بنجاح مماثل .

ومن روائع شو في المرحلة الاخيرة من حياته الادبية مسرحيتان : الأولى : « بيت القلب الكسير Heartbreak House » وقد اخرجها ج.ب . فاجان على « مسرح البلاط » ، سنة ١٩٢١ ، والثانية جان دارك التي أخرجت في ٢٦ آذار سنة ١٩٢٤ . فأما « بيت القلب الكسير » التي كتبت في اواخر الحرب العالمية الاولى فتُظهر ان الحضارة سائرة الى الدمار بسبب من انعدام الهدف ، وفقدان التوجيه الحصيف الواعي . والشخصيات المتعددة التي تنتظمها هذه المسرحية متشابهة في أنها كلها تجري في سياق الحياة الى غير هدف ؛ إنّ قلوبها كسيرة بمعنى ان كلا منها قد تحطمت معتقداته التي كانت تقي نفسه من الحقيقة . والواقع ان الكابتن شوتوفر ، نصف المخبول ، الذي يختلف في فترات عزلته الى « سماء التركيز السابعة » إنما يعبر عن مغزى المسرحية عندما يقول : « الملاحة ـ تعلمها وعِشْ ؛ او دعها وعليك اللعنة . » والغريب ان بعض نقاد شو يعتبر مسرحية « بيت القلب الكسير » هذه افضل مسرحياته على الاطلاق ، في حين وصفها بعضهم الآخر

فقال إنها تدعو الى السأم ، وإنها لا تُفهم .

ومهما يكن من امر ، فقـد سلم النقاد جميعاً بعظمة « جان دارك » St. Joan وروعتها ، فهي تعالج موضوعاً كبيراً ، وانها لمفرغة في اسلوبٍ فخم جديرٍ بها . وليس من ريب في ان مشهد المحاكمة من أروع المشاهد في الادب العالمي كله . وعلى الرغم من ان المسرحية هي من حيث الشكل ، مسرحية تاريخية فأنها تعبر عن معتقد البروتستانتيـة الجوهري ، اعني ان في استطاعة النفس الانسانية ان تتلقى الوحي من الذات الالهية مباشرةً ، من غير ما حاجة الى وساطة الكنيسة او الكاهن . لقد أحرقت جان دارك لانها خدمت الله اولاً ، ورفضت ان تخضع لسلطة الكنيسة عندما تدخلت ما بينها وبين الله . وانما سلمت الكنيسة ، عندما رفعتها الى مقام القداسة ، بعدُ ، بألوهية الوحي الذي تلقته . ومع ان شو يُظهر الكنيسة بمظهر من ارتكب خطأ كبيراً ، فأنه يصور ممثلي الكنيسة الكاثوليكية في كثيرٍ من الانصاف والمشاركة الوجدانية . والواقع ان بيـير كوشون ، أسقف بوفيه ، الذي يلعب دوراً هاماً في محاكمة جان دارك شخصية مُعجِبة تنضح بالاخلاص والشعور الديني ، في حين ان « المحقق » لطيف ، قوي الحجة ، مثقف ثقافة رفيعة . *

وبدت « جان دارك » ، كما هي في الواقع ، رائعة تتوج حياة شو الادبية ، وضاعفت من الشهرة والاجلال اللذين كان يتمتع

* نقل الدكتور احمد زكي بك هذه المسرحية الى العربية نقـلا بارعاً جديراً باعظم الثناء . ( المعرب )

بها كاتبنا العظيم . ومن ذلك الحين واخذ كلماته تلقى من الناس احتراماً مقروناً بالجزع ، وكل جملة من جمـــله تُنقل على اجنحة البرق عبر قارّات عدّة .

ومن ابرز ما قام به شو في اواخر الربع الاول من القرن العشرين وضعه مسرحية بالغـة الطول تتألف من ثمانية فصول بعنوان « عودة الى متوشالح* Back to Methuselah » وقـد اقتضى تمثيلها ، يوم اخرجها السير باري جاكسن في برمنغهام ، خمس حفلات استغرقت اربعة ايام متوالية . انهـــا لصورة عن مستقبل الانسان تنفصل ما بين فصولها فترات تمتد على آلاف من السنين ، وتحمل النفس البشرية « الى ابعد ما يستطيع الفكر ان يثب » . فـ « القـدماء » ، وهم نوعٌ من الانسان الكامل الذي يحيا في هذا المستقبل الممعن في البعد ، يعمرون ثلاثمائـة عام ، ويجتازون المراحل الاولى من نشوئهم في اربع سنوات تقريباً ، ويقفون سائر أعمارهم ، على التأمل والنشاط الفكري . والحق انه لمن المتعذر على شو ان يكتب مسرحية لا تنطوي على مقاطـع فيها روعة وفيها تحدٍّ ، ولكن « عودة الى متوشالح » يجب ان تُعد ، على الجملة ، عملاً فاشلاً حقاً .

وفي سنة ١٩٢٥ مُنح شو جائزة نوبل في الآداب ، فاعتبر ذلك اعترافاً بجميله على العالم الذي تنفس الصعداء ، تلك السنة ، لان شو لم ينشر خلالهـا ، شيئاً من أدبه !! ولقد رفض بادىء الرأي هذه المكافأة التي تبلغ سبعة آلاف جنيه ، ثم عاد فقبلها ،

( * ) في التوراة ان متوشالح عاش ٩٦٩ سنة . [ العرب ]

ولكنه تبرع بها ، على التو ، لجمعية « الاتحاد الادبي الانكليزي السويدي » .

وقضى شو عدة سنوات، بعد نجاحه العظيم في « جان دارك » وهو يكتب مؤلفه الكبير « دليل المرأة الذكية في الاشتراكية ورأس المال » . ولسنا نحسب ان قضية ما عُرضت قطّ بأحسن مما عرضت قضية الرأسمالية والاشتراكية في هذا الكتاب . فقد بلغ شو غاية الروعة في بسطه ، بوضوح وعزم ، تلك الافكار التي وقف حياته لها .

وفي سنة ١٩٤٥ نشر شو – وهو في الثامنة والثمانين من عمره – كتاباً مفيداً دعاه « دليل السياسة للجميع » Everybody's Political What's What ، بعد ان مهر العقد الرابع من هذا القرن بعدد من مسرحياته الجديدة . بيد ان أياً من الكتب التي وضعها شو بعد « دليل المرأة الذكية » لم يبلغ المحل الارفع الذي سمت اليه آثاره السابقة .

وشو نباتي ، ومن مجتنبي الخمرة . وهو يزعم انه مدين بصحته الجبارة وذخيرته الهائلة من النشاط لهاتين الخصلتين . قال : « اني أعلن ، في صراحة ، ان الرجل الذي يحشو بطنه بالويسكي والاجسام الميتة لايستطيع ان يقوم بأفضل ما يستطيع من عمل . » كذلك كان شو يجتنب التدخين . وفي ذلك يقول : « لقد ادركت ، وأنا بعد في ميعة الصبا ، ان من السخف أن ندفع المال الى العامل المختص بتنظيف مداخننا ، بعد ان نكون قد ملأنا غرفنا بالأدخنة القذرة المنبعثة عن ذلك العشب البالغ

الاذى » .

ويكره شو المناسبات الاجتماعية الرسمية ، ولم يُوفق يوماً الى اقناع نفسه بضرورة ارتداء لباس السهرة الرسمي . وهو يجيب بين الفينة والفينة دعوات أصدقائه فيزورهم في نهاية الاسبوع اذا ما اعتقد انه سيستمتع بحديثهم . وكثيراً ما يُوقع الدهشَ في نفوس مضيفيه بما يُبدي من براعةٍ في المهن العملية ، وما يظهر من رغبةٍ في ان يشارك في غسل الثياب. ولكنه على الجملة يكره العُطل بقدر ما يكره المباريات الرياضية، وهو يتخذ من ركوب الدراجة والاستحمام وسيلةً الى التدريب الجسماني . والواقع ان ملابسه تنبيء عن شخصيته ؛ فهي على الاقل تختلف من ملابس أي انسان آخر . فهو يلبس دائماً « ياقة » ناعمة ولا يلبس قميصاً لاعتقاده بأن من الخطأ أن يلفّ المرء وَسطه بثياب ذات سماكة مضاعفة . إنه يلبس بدلاً من ذلك مجسداً * يغطي بدنه من الرأس الى اخمص القدم . أما بذلته فيرتديها مدةً طويلة جداً ، وهكذا تكتسب بذلته ، كما يقول ، « شخصية خاصة بها وتصبح نموذجيةً تنمّ عني ، وعندئذٍ يتخذ الكمان والرِّجلان شكلاً انسانياً ، مع الركبتين والمرفقين التي خُصصت بها من دون سائر الناس »

وشو فارع الطول ، نحيل ، نشيطٌ ، ذو لون نضر . وقد كان شعره ، وشعر لحيته الخفيف ، غير المتناسق ، ضارباً الى الحمرة ، في ايام الشباب ، ثم حال لونه أبيض حين بلغ الخمسين .

* المجسد : القميص الذي يلي الجسد .

وهو يحسن الغناء، ويجد متعة بالغة في العزف على الـ «بيانولا» pianola . وقـــد انتهى في اواخر حياته الى الولوع بسوق السيارات والتصوير الفوتوغرافي . وهو يحب ان يصوّر وإن له لرسوماً فوتوغرافية لا تكاد تعد . ليس هذا فحسب، بل لقد صنع له عددٌ من النحاتين تماثيل كثيرة في السنوات العشرين الاخيرة. ومن أشهر هؤلاء النحاتين رودان ، وأبشتاين .

ومن عادة شو ان يشرف بنفسه على اخراج مسرحياتـه . وهو برغم إلحاحه على مفاهيمه الخاصة في التمثيل والتفسير يحرص دائماً على ان يكون لطيفاً ووديّاً ، في حين يرسل الدعابة اللاذعة ويوزع النكات البارعة هنا وهناك . وشو قارىء يمتاز ذوحسّ مسرحيّ لا يعتريه الوهن ، وقد استطاع ان يكون دائماً عوناً للممثلين على أن ينتزعوا أبعد التأثير من سطورهم .

وبرنارد شو من اعظم أدباء العصر الحديث ، بلا خلاف . صحيحٌ أن أحداً لا يستطيع اليوم أن يحدّد مكانته النهائية ككاتب وكمسرحي . فذلك أمرٌ يقرّره الزمن في الدرجة الأولى — ولكن من الراجح أن يُعتبر ، على الأقل ، اعظم كتاب المسرح البريطانيين منذ شكسبير . إن مسرحياته لتختلف ، طبعاً ، اختلافاً اساسياً في الهدف والروح والأسلوب الفني من مسرحيات شكسبير . فقد كتب شكسبير ليسلي النظارة ، ويُبدع الجمال ، ويصوّر الحياة في مختلف ألوانها وأشكالها وليحرّك النفس الانسانية من طريق الأشفاق والخوف. أما شو فصاحب دعوة يريد نشرها في الناس، ومن هنا كانت اهدافه، في الأساس، فكرية واخلاقية .

إنه يكتب مسرحية الأفكار والنظريات ، وهو يسعى لكي يُصلح العادات والاخلاق وليغير البِنْية الاجتماعية . ومع ذلك فأن احسن مسرحياته تتميز بنبل في الغرض والأسلوب يجعلها خليقة بأن تقارَن بأفضل ما أُثِرَ عن شكسبير . إنه يقصد الى استثارة الذكاء وإلهاب الفكر ولكنه إلى ذلك زعيم من زعماء النكتة . ونخطيء كذلك إذا لم نَقْدُر أستاذيته في الفن المسرحي حق قدرها ؛ فكثيرٌ من مسرحياته تكشف عن مقدرة فائقة في خلق المواقف الهزلية والتهكمية ، وهو بلا خلاف أحد عمالقة السخرية. ليس هذا فحسب ، بل ان شو كثيراً ما يُلهب نفوسنا ببلاغته النارية ، ولا غرابة في ذلك فهو رجلٌ تحرّكه الافكار العظيمة وتوقع في نفسه تأثيراً بعيداً جداً. ولقدألف بعض النقاد أن يقولوا إن نقطة الضعف في شخوص المسرحيات التي وضعها شو كونها مجرّد تجسيدات لآرائه الخاصة . ولعلّ مُحصَّل هذا أن مسرحياته تنطوي على الاخطاء التي توافق، عادةً ، كفاياته ومواهبه المميزة ، وأنها تختلف من مسرحيات الكتاب الآخرين ، كشكسبير مثلاً . ولكن ذلك يجب ان لا ينتقص بأية حال من عظمتها الخاصة . والراجح أن عدداً من مهازله من مثل «السلاح والرجل» و«بيجماليون» و «كانديدا » سيكون لها ، شأن مهازل شاريدان وجولد سمث ، مكان خالد على المسرح البريطاني ، في حين أن الشيء نفسه يكاد يكون صحيحاً على التحقيق في كثير من مسرحياته الاوسع أفقاً ، مثل « جان دارك »، و « قيصر وكليوباترة »، و « الانسان والانسان الكامل » و « بيت القلب الكسير » بخاصة .

وليس يستطيع شو ان يدعي، بوصفه مفكراً، ابتداع مذهب ما . فاشتراكيته مستمدة في معظمها من ماركس ، ونظريته في التطور الخلاق مقتبسة عن صموئيل بطلر . أما الاخلاق عنده فبروتستانتية وطهرية ( بيوريتانية ) ؛ وهو يعتقد أن حياة الانسان لا تصبح ذات معنى حقيقي الا من طريق العمل في سبيل هدف عظيم ، ويؤمن بان النفس المفردة قادرة على ان تتلقى الوحي من الله مباشرة .

ولسنا نحسب أن احداً قد فاق شو قط بوصفه صاحب دعوة يعمل على نشرها في الناس ؛ فهو من ابرع الناس في لفت الانظار الى افكاره ببسطها في طريقة فيها قوة وتحدٍّ . وليس من ريب في ان فن المبالغة الواعية الذي يعتمده شو كان فعالاً . ولعل احداً لم يعمل باكثر مما عمل شو لتكوين رأي عام حديث يكون اكثر حصافة واشد اخذاً بالحقائق .

لقد كانت طاقة شو وانتاجه ، وما يزالان ، مدعاة للدهش والاعجاب . وهو اليوم في نحو التسعين وليس يبدو على قواه اقلّ أمارات الضعف والانحطاط . ولعله قادرٌ ، بعدُ ، على ان يضيف امجاداً جديدة الى الادب الانكليزي الحديث *.

---

( * ) توفي برنارد شو منذ مدة وجيزة، ففقد الادب العالمي بوفاته عبقرية عز نظيرها في العصر الحديث وفقدت الحرية نصيراً من اشد انصارها جرأة . ومما يذكر هنا أن البانديت نهرو رئيس وزراء الهند اصدر امره، يوم وفاته، بتعطيل الدروس في جميع معاهد الهند حداداً عليه . [ المعرب ]

# ٣ ﻫ . ج . ويلز



كان هـ . ج . ويلز ابن لاعب « كريكت » من مقاطعة كنت Kent البريطانية ، وكان أبوه يملك ايضاً دكاناً صغيراً في بروملي من اعمال المقاطعة نفسها ، حتى اذا شحت موارد الدكان عملت مسز ويلز مدبرة لأحد البيوت الكبيرة في أببارك Uppark من أعمال مقاطعة ساسكس Sussex ، وهكذا قضى ويلز الصغير فترة صالحة من صباه في جو ذلك البيت نصف الاقطاعي ، الذي يجعل الاحترام وقفاً على اصحاب الثروة والجاه . والواقع ان ذكرياته عن أببارك قد أمدته بمادة غزيرة أفاد منها في بعض الفصول الساخرة الممتازة من قصته الكبيرة ، « تونو بونجاي » Tono Bungay .

ورغبت أم هربرت الصغير في ان تجعل منه تاجر أقمشة . من اجل ذلك وضع مرتين متواليتين في خدمة بعض تجار هذه البضاعة . وقد احتفظ بعمله ، في المرة الثانية ، مدة تزيد على سنتين ، ولكنه ولى الادبار اخيراً ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، محرراً نفسه نهائياً من عمل بغيض اليه فما يكاد يطيقه بحال . وفي السنوات التالية كتب ويلز ، في مرارة ، عن الاحوال الفظيعة التي كان يعانيها مستخدمو المتاجر في عهد شبابه الاول . ذلك بأن ساعات العمل بالنسبة الى احداث المستخدمين في الدكاكين والمتاجر لم تنقص ، بحكم القانون ، الى اربع وسبعين كحد أعلى اسبوعياً ، الا بعد فرار ويلز من حياة الكدح الموصول بعشر سنوات أو يزيد . وانما كان ويلز يحيا ، في تلك الاثناء ، في غرفة واحدة مع عدد من زملائه المستخدمين . كان طعامه أقل من

ان يكفيه ، وكان عمله مملا لا يطاق ، ومتواصلا لا ينقضي ؛ وكان عليه ان يحتمل ضروباً من المظالم الصغيرة غير المتناهية . وقد اعتبر ، بعد ، اقدامه على الهروب احسن عمل قام به عمره كله ، وان يكن قد استشعر يوم خطا هذه الخطوة الحاسمة ان إثمه لا يغتفر . والحق ان عدداً من ابرع فصول « كبس » Kipps و « تاريخ مستر بولي » The History of Mr. Polly و « عجلات الحظ » Wheels of Chance مستوحاة من ايامه الاولى كمساعد جواخ . وانما تظهر قصتا « عجلات الحظ » و « تاريخ مستر بولي » ان حياة الكدح مهما بلغت من العُسر والبشاعة اعجز من ان تقتل نفس المرء الخيالية الحالمة . ولقد كان ويلز ، كأبطال قصصه ، خياليا حالماً من الطراز الاول .

ودرّس ويلز مدةً من الزمان في احدى المدارس الثانوية . وفي كتابه « الحب ومستر لويشام » Love and Mr. Lewisham نفحات من حياته كمدرس . والواقع ان ويلز قرأ ، خلال سنواته الاولى ، كلّ ما وقع بين يديه ، في شراهة ونهم ؛ فكان لمطالعته الباكرة لكتاب بين Paine « حقوق الانسان » وكتاب سبنسر « المبادىء الاولى » واضرابهما أثر في نزوعه الى التشاؤم . ولكنه لم يبدأ قراءاته النظامية في حقل العلم الا في سنوات التدريس ليفوز بعدة شهادات من « دائرة العلوم والآداب في « كنسنجتون الجنوبية » . ثم انه فاز بمنحة دراسية مكنته من ان يلتحق ، كمدرس متدرّب ، بدار المعلمين العلمية في كنسنجتون الجنوبية . وفي ما بعد صار في ميسوره ان يتتلمذ على العلامة ت. ه. هاكسلي

الذي اجله ويلز عمرَهُ كله اجلالاً عظيماً . واخيراً نال ويلز ، شهادةً في العلوم ودرجةً مشرّفة جداً في علم الحيوان . وليس من ريب في ان دراسته على هاكسلي تركت انطباعةً عميقةً في عقله . وتفسير الحياة الذي أصبح بعدُ احدى خصائص ويلز انما يقوم على تطبيق المفاهيم المقررة في الدراسة البيولوجية ، على الحياة .

وعندما أتمّ ويلز دراسته علّم برهة في مدرسة خاصة ينقصها كثير من شروط المدرسة المثالية ( وكثيراً ما عرّض ويلز بأمثال هذه المدارس في قصصه ) . ولكنه اصيب بعد ذلك بداء ألزمه الفراش مدةً طويلة من الزمان . وفي فترة المرض هذه وفي دور النقاهة الذي عقبها حاول ويلز جدّياً ان يكسب رزقه من طريق الكتابة . وانقضت عدة سنوات قبل ان يوفق الى ايما نجاح ، حتى اذا كانت سنة ١٨٩٥ نشر ويلز – وكان آنذاك في التاسعة والعشرين – اربعة كتب : الاول مجموعة من المقالات والصور الادبية دعاها « احاديث مختارة مع احد الاعمام » Select Conversations with an Uncle ، والثاني قصة « مخترعة » دعاها « آلة الزمان » The Time Machine ، والثالث مجموعة من الاقاصيص بعنوان « الجرثومة المسروقة وقصص اخرى » The Stolen Bacillus and other Stories ، وآخرها قصة خيالية بعنوان « الزيارة العجيبة » The Wonderful Visit ، وهكذا انقادت الشهرة الى ويلز ، بعد إخفاقه الباكر ، دفعةً واحدة ، فاذا هو علم من اعلام الادب الانكليزي البارزين .

والحقّ ان « آلة الزمان » كانت بمثابة نبوءة عن مظهر من مظاهر شخصية ويلز الادبية المتعددة الجوانب . لقد اظهرت ان ويلز سيصبح في يوم من الايام زعيم القصة الخيالية العلمية غير منازع ، في العصر الحديث . ذلك بأن ويلز ترسّم خطى جول فيرن * Jules Verne في اختراع الحكايات والقصص ذات الخيال البعيد ، مفيداً في نسج هذه المخترعات من احدث نتائج البحث العلمي ، ومتنبئاً في الوقت نفسه ببعض التطورات الجديدة ، ولكنه اختلف من جول فيرن بأنه ادخل على جميع قصصه هذه ، او معظمها ، بعض المفاهيم الاجتماعية الجدّية . والفكرة التي تميز اكثرما تميز قصصه الاولى هي الخطر الذي يتهدد العالم من إساءة الانسان استعمال القوة التي منحه اياها العلم . فجماعة « الأيلوي » في قصة « آلة الزمان » ينفقون قوتهم في الاستمتاع بحياة لا جهد فيها ، حياة قائمة على استغلال العبيد . فطبيعي ان تنحلّ قواهم ، شيئاً بعد شيء ، لتمهد السبيل الى انقراضهم ، آخر الامر . وعلماء جزيرة الدكتور مورو يرتكبون افبح الفظائع من طريق تشريح المخلوقات البشرية ، باسم البحث العلمي وتحت ستاره .

وقصص ويلز العلمية الاولى أصيلة تنضح بالحيوية وتترجرج

---

* روائي فرنسي اشتهر بقصصه الخيالية التي تمتع وتثقف في آن معاً . ومن اشهر مؤلفاته « الجزيرة العجيبة » ، و « دورة حول العالم في ثمانين يوماً » ، و « ميشال ستروكوف » وغيرها . وكانت وفاته سنة ١٩٠٥ .

( المعرب )

بالروعة والبهاء . انها ، كقصص ، لا تقل أمراً عما كتبه فيرن ، ولكنها الى ذلك تزخر بالآراء الوجيهة في قضايا العصر الكبرى . أما أمارات النظرة العالمية التي أمست بعدُ خاصة مُميزةً لويلز فلن نقع عليها الا في قصصه الخيالية المتأخرة، أعني« الحرب في الهواء» The War in the Air (١٩٠٨) ، و « تونو بونجاي » (١٩٠٩) و « العـــالم منطلقَ السراح » (١٩١٢) The World Set Free وفي غضون السنوات الفاصلة ما بين الدورين قام ويلز بجهود صادق في خدمة القضية الاشتراكية مع الجمعية الفابية . والواقع انه كان عضواً عاملاً في هذه الجمعية من سنة١٩٠٣ الى سنة ١٩٠٨ عندما استقال بعـــد ان حاول تثوير سياستها فاخفق ، وكان المسؤول الاول عن هزيمته هذه خصمه الالد برنارد شو . ولم يندم ويلز يوماً على انسحابه من الجمعية الفابيـــة التي أمست منذ ذلك الحين هدفاً لنقده اللاذع . فقد انتهى اخـيراً الى الايمان بأن الاشتراكية الفابيـــة كانت اضيق من ان تتسع لاستشرافه المترامي الاطراف outlook . ومنذ صدور « الحرب في الهواء » وويلز يعمل للتنظيم العالمي ويدعو اليه باكثر مما يعمل للاشتراكية البريطانية ويدعو اليها . بل لقد سبق له ان عالج في مقالاتـــه الاجتماعية الاولى * مسألة الديموقراطية ومواطن الضعف فيهـا فتبدّى له ان هذه الديموقراطيات ( التي كانت في نظره نظماً

( * ) في كتاب « آمال مرتقبة » ( ١٩٠١ ) Anticipations وكتاب « الجنس البشري في دور التكوين » (١٩٠٣) Mankind in the Making

أوليجاركية * في كل شيء ما خلا الاسم ) ستتورط وشيكا في حروب كبرى لاتُبقي ولا تذر . وبينما كان الفابيون قد بدأوا يدركون ، بعد طول تردد ، ان عهد السلم الطويل ، الذي ساد عصري فيكتوريا وادوارد ، يؤذن بالانقضاء، وبينما كانوا يواصلون سعيهم بسبيل إنشاء الاشتراكية البريطانية ، في بطء وتدرّج ، كان ويلز على مثل اليقين من أن المشكلة التي يتعين على الانسان الحديث أن يواجهها ليست إقامة الاشتراكية في بلد ما ، بقدر ما هي بناء عالم موحد منظم . والواقع ان كلا من « الحرب في الهواء » و « العالم مطلقَ السراح » يصور نشوء عالم منظم إثر فترة من الحروب العالمية المدمرة . ولا خلاف في ان الكتابة بهذه اللغة في عام ١٩٠٨ لتكشف عن قدرة عجيبة على التنبؤ بمصاير العالم . والمفهوم الاجتماعي الذي تميز به ويلز في ما بعد إنما يقوم على القول بحاجة الانسانية الماسة – إذا كان لهذه الانسانية أن تتجنب تدمير نفسها بالاسلحة التي زودها بها العلم – الى الوحدة العالمية ، والى الاشراف المنظم على موارد العالم الاقتصادية ، وإلى نظام تربوي ملائم تأخذ به الدول جميعاً . والفارق الرئيسي ما بين قصص ويلز الاولى وقصصه المتأخرة هو في أن القصص المتأخرة مستوحاة من هذا المفهوم الاجتماعي نفسه .

وكان ويلز ، سواء في عهده الادبي الاول او في عهده الادبي المتأخر ، خصباً في انتاج القصص خصبَهُ في انتاج الروايات

( * ) الاوليجاركية نظام من الحكم تكون السلطة فيه لأقلية صغيرة .
[ المعرب ]

الخيالية . وافضل قصصه تلك التي وضعها في عهده الاول ، ولعل مرد ذلك الى ان هـــذه القصص كانت أعلق بتجاربه الخاصة .
فـ « عجلات الحظ » تصور مساعد بائع أقمشة تزخر نفسه بالتخيلات الرومانتيكية ، فهو يسعى الى ارضاء نزعته الرومانتيكية هذه في عطلته السنوية فيتورط في مواقف غريبة متعددة تجعله مضحكاً اكثر منه رومانتيكياً . ونحن نشك في ان ويلز كتب يوماً بمرح أغزر وبدعابة ابرع مما تنضح به قصته القديمة هذه . ولا خلاف في ان قصة « الحب ومستر لويشام » ، وهي اثر اقتضى ويلز جهداً اكبر ، كانت اقل حظاً من الحرارة والنجاح . امـا « كيبس » Kipps فمهزلة ( كوميديا ) اجتماعية لامعة تدور الفكرة الرئيسية فيها على محاولة الالقاء بمساعد جوّاخ لندني في خضم المجتمع الراقي وما يلزم عن ذلك من مضحكات . واما « تاريخ مستر بولي » فلا جدال في انها من اروع ما كتبه ويلز . ان فيها لمزاجاً معجباً من الفكاهة والخيال الحالم والنقد الاجتماعي وكل مــا يثير عواطف الاشفاق والرأفة . ولسنا نحسب ان ويلز اصدر عن نَفَس من الانسانية اعمق من ذلك الذي اصدر عنه في هذه القصة ، او كتب بحيوية أقوى وبروح من الفكاهة ارفع مما تم له فيها .
وجمهور النقاد على ان « تونو بونجاي » التي نشرت سنة ١٩٠٩ هي اعظم قصص ويلز على الاطلاق . فليس ثمة فضيلة مميزة من فضائل ويلز ، سواء بوصفه قصصياً ام بوصفه مفكراً ، لا تتجلى في هذه القصة ، ولكنها فوق ذلك ، اعظم سعة وافخم اسلوباً من اي من آثاره الاولى ، بل من آثاره المتأخرة ايضاً على الارجح .

والواقع ان شخوص هذه القصة تمتاز بحيويتها البالغة ، وبما تنطق به من مقاطع رائعة ؛ ولعل الفصل الاخير من اروع الفصول الادبية على الاطلاق . والفكرة الرئيسية التي تدور عليها قصة « تونو بونجاي » فكرة سنطالعها ، بعد ، في جميع مؤلفات ويلز التالية . لقد رأى لندن - وفي الحق رأى العالم المخبول كله - تسير وتتطور في فوضى كاملة ؛ وتأمّل في تقدمها العجلان فلم يجد وراءه اما فكرة نبيلة ، او اي مبدأ موّجه ذي قيمة . وانما اعتقد ويلز ان عالماً لا يخضع لتصميم ما ، ولا هدف نبيلاً له ، خليق بان يتحطم على صُم الصخور .

ومعظم المؤلفات القصصية التي وضعها ويلز بعـــد القصص المذكورة آنفاً هي دون سابقاتها في الامتاع والقيمة الفنية . فبهنا يسيطر ويلز الباحث الاجتماعي على ويلز القصصي . والواقع ان آثاراً من مثل « يوحنا وبطرس » Joan and Peter و « زوجـة السير اسحق هارمـــان » The Wife of SirIsaac Harman ، تزخر بالمناقشات والمادة الداعية الى التفكير ، ولكنها لا تستأثر برضا القارىء ولا تستثير ، احياناً ، شوقه . ليس هـذا فحسب ، بل لقد وقف ويلز القسم الاعظم من وقته، منذ أواخر الحرب العالمية الاولى ، على الكتابة المنطقية الجدلية . ذلك بأن الحرب تركت اثراً بعيداً في عقل ويلز ، كذلك الاثر الذي كان متوقعاً ان تتركه في نفس اي انسان مرهف الحس، بعيد مطارح الخيال . ومع إدراك ويلز عظم الخسائر التي أنزلتها الحرب العالمية بالانسانية ، سواء في الارواح او في الممتلكات ، فقـد اعتقد انها

مجرد مقدمة لحروب أشد منها هولاً واكثر تخريباً ، ولن تكون شيئاً غير ذلك الا اذا فهمت الانسانية الدرس القاسي الذي يجدر بها ان تتعلمه من تلك الحرب . وهكذا وطّن النفس على ان ينفق بقية عمره في تلقين العالم هذا الدرس .

فما هو الدرس الذي يتعيّن على الانسانية، في رأي ويلز ، ان تتلقاه ؟ يجب ان تتعلم اولاً ضرورة التأني البيولوجي للمشكلات الانسانية ، هذا التأني الذي بدت لويلز اهمته القصوى منذ ان تتلمذ على العلامة ت. ه. هاكسلي . وتفصيل ذلك ان الانسان يواجه ،شأنَ سائر المخلوقات ، مشكلة تكيف يجب ان تحل . فقد انقرضت ، خلال مراحل التطور المتطاولة ، جماعات كثيرة من المخلوقات الجبارة ، والزواحف المهولة ، واللبونات ، بسبب من عجزها عن التكيف وفقاً لحاجات البيئة المتبدلة . وها هو العلم يخلق اليوم بيئة مادية واجتماعية جديدة للانسان فلا مناص له ، في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة ، من تكييف نفسه وفقاً لبيئته الجديدة. وليس يشك ويلز في أن الانسان سيحقق ،آخر الامر، الاجراءات الضرورية لهذا التكيف ؛ اما اذا لم يفعل فعندئذ يكون من اليسير التنبؤ بنهاية الجنس البشري. وفي أشد سنوات التاريخ الحديث سواداً ، نشر ويلز كتاباً دعاه « نهاية النوع البشري » End of Homo Sapiens ولكن عدداً من كتبه التي وضعها في الفترة الفاصلة ما بين الحربين العالميتين لا يعدو ان يكون دعوة الى تكيف بشري صحيح وعاجل .

وتفكير ويلز في هذه المسألة يجري في هذا السياق : اذا كانت

الانسانية تدمر نفسها ، فهي إنما تفعل ذلك من طريق الحرب .
واذن فأول وأهم ما يحتاج اليه العالم اليوم تعديل adjustment إنساني واجتماعي يقضي على الحرب. وللمشكلة عند ويلز ثلاثة وجوه رئيسية . فأما الوجه الاول فهو الوجه السياسي . وهنا يلاحظ ويلز أنه فيما انتهى العالم ، بفضل ثورة المواصلات والتقدم الفني ، الى أن يصبح وحدة او يكاد ، وفيما أمست بعض دوله متممة لبعضها الآخر اقتصادياً ، نجد ان الحدود السياسية القديمة لا تزال على ما كانت عليه من قبل ، وان كل دولة من دول العالم لا تفتأ تلح على حقوقها الخاصة في السيادة الكاملة . ومعنى ذلك ان المشكلات التي تؤثر ابعد التأثير في رفاهية الدول جميعها او كثرتها انما تقرر من قبل دولة ما على ضوء مصالحها الذاتية الخالصة . ومن هنا يرى ويلز ان انتظام الدول الكبرى في ضرب من الاتحاد الفدرالي الذي يحرم كلا من اعضائه بعض سيادتها قد امسى ضرورة لبقاء الجنس واستمراره .

ولكن مجرد التنظيم السياسي ، اياً كان نوعه ، لايستطيع انقاذ السلم . فمن الضروري ان تُضمن ، الى ذلك ، المساواة الكاملة او شبه الكاملة في توزّع المنافع الاقتصادية بين مختلف شعوب العالم . وبكلمة ثانية ، يجب ان تُحدث رقابة اقتصادية عالمية فدرالية ، وان ترسم خطة تساعد على الافادة من ثروات العالم افادة افضل .

ومهما يكن من امر ، فأهم وجوه المشكلة ، كما يراها ويلز ، هو وجهها التربوي . ان الانسان نفسه يجب ان يُغيّر . فالتنظيم

السياسي الجديد لن يقدّر له النجاح ، حتى ولو تم اتفاق الدول على اقامته ، اذا لم تتغير الطبيعة الانسانية التي ستطبقه . فويلز لا يقر زعم القائلين بأن الطبيعة الانسانية غير قابلة للتغيير ، كما لا يقرّ رأي الذين يعتقدون بان تغييرهـا لا يمكن ان يتم الا بالطرائق اليوجنية ( علم تحسين النوع ) . وهو يلاحظ هنا ان تكيف الحيوانات ذات الادمغة مع بيئاتها إنما يقوم ، الى حد متزايد ، على تعليم صغارها . ذلك بأن المتعضّيات الدماغية تعتمد اقلّ ما تعتمد على الغريزة ، واكثر ما تعتمد على التثقيف . واذن فمن الممكن ان نكيّف الانسان وفق بيئته من طريق تعديل تربوي ما . ولكن تغييرات هائلة لا بد من احداثها بسبيل ذلك. والواقع ان ويلز لم ينصرف خلال سنوات ما بين الحربين الى دراسة شيء بمثل الجدّ الذي انصرف فيه الى التفكير في هـذه التغييرات والسبيل الى تحقيقها .

وقد تمثلت المشكلة لويلز بوصفها في الدرجة الاولى مشكلة نشر مجموعة معينة من المعرفـة وبثها في ارجاء العالم كله . فعدوّ الانسان الألد ليس شيئاً غير الجهل والبلاهة التي هي ثمرة الجهل . ومن هنا كان من الضروري قبل كل شيء ان يتعلم الانسان كيف يواجه مشكلاته على اساس بيولوجي . ومثل ذلك يقتضي دراسة النشوء والتطور ومعرفةً صالحة بالبيولوجيا الحيوانية والانسانية والاجتماعية .ولتيسير هذه الدراسة بذل ويلز جهداً عظيماً،بمساعدة ابنه ج.ب. ويلز والبروفوسور جوليان هاكسلي ، في وضـع كتاب عظيم دعاه « علم الحياة » The Science of Life وضمنه

عرضاً واضحاً حياً للعلوم الانسانيـــة والبيولوجية الرئيسية . كذلك اعتقـد ويلز ان من الامور الاساسية ان يعي الانسان نفسه أتمّ الوعي كمواطن من مواطني الارض تربطه رابطة الزمان بأقدم اشكال الحياة وعهود التاريخ . اما وجهة نظر الرجل الذي يعي مواطنتَهُ لبلدٍ بعينه في عهد بعينه فلم تعد متلائمة وحاجات العصر الحديث . واذا لم نوفق الى حمل الانسان على الاحساس بأنه مواطنٌ عالمي فعندئذ يكون الامل في الغـــاء الحدود الجغرافيـــة البالية القائمة بين الدول واقامة سلطات اقتصادية وسياسية عالمية فدرالية اقرب شيء الى العبث والخيال . فمن الحتم ، اذن ، في رأي ويلز ، ان نستعيض عن تدريس التاريخ القومي بتدريس التاريخ العالمي . من اجل ذلك افرغ ويلز الجهد في كتابة مؤلفه الشهير « مختصر التاريخ » Outline of History . والواقع ان هذا الكتاب البارع حظي بنجاح يعزّ نظيره ، فبيع منه ما يقارب مليوني نسخة ....

واعتقد ويلز ايضاً ان معرفةً ما بالعلوم الاجتماعية والسياسية ضرورية للمواطن الحديث . فعكف مع نفر من الزملاء على وضع كتاب جديد دعاه « عمل الانسان وثروتـــه وسعادته » Work, Wealth, and Happiness of Mankind فجاء حافلاً بزاد دسم من المعرفة الاقتصادية والسياسية الحديثة . وفي سنة ١٩٢١ نادى ويلز ، في كتابه « انقاذ الحضارة من الغرق » Salvaging of Civilization بانه يتعين على كل مواطن ان يدرس ما يدعوه « الكتاب المقدس الجديد » ليتم له إلمام كاف بتلك المعرفـة التي

يتحتم على الجنس البشري التثقف بها اذا ما كان لنا ان نطمع في تكييف الانسان تكييفاً حسناً مع بيئته المادية والاجتماعيــة .
والحق ان كتب ويلز الثلاثة العظيمة « مختصر التاريــخ » ، و « علم الحياة » و « عمل الانسان وثروته وسعادته » لتمثـــلُ مجهوده لاخراج مثل هذا الكتاب المقدس. وفي كتابه الأحدث، « دماغ العالَم » World Brain رسم ويلز خطة يساعد تطبيقهـا على جعل كتابه المقدس ، او اي مؤلف مُاثـــل او سلسلة من المؤلفات المماثلة ، اساساً للتعليم النظامي في جميع المدارس الثانوية. وانما يطلب ويلز ، لتحقيق هذا الغرض ،طلباً متواضعـاً لا يعدو ست ساعات من المنهاج المدرسي ، اسبوعياً .

وفي سنة ١٩٢٨ نشر ويلز كتاباً دعاه « المؤامرة الصريحة » The Open Conspiracy ثم اعاد نشره معدلا بعنوان « ما الذي سنفعله بحيواتنا ؟ » . What Shall We Do with Our Lives? وقد وجه فيه نداء دينياً الى رجال عصره ونسائه يحثهم على ان يقفوا حياتهم كلها لاقامة سلطات فدرالية عالميــة في حقول الاقتصاد ، والسياسة ، والتربية . فهو يصر على ان الفكرة الرئيسية الــتي يبشر بها الدين هي انقاذ الانسان روحه من طريق فقدانهـــا ، والايمان بانه « لا سبيل الى طمأنينة الفؤاد الا بمقـــدار ما يُفني الانسان رغباته الفردية في هدف اكبر وانبل . » وليس ثمـــة اليوم ، في نظر ويلز ، هدف يمكن ان يتبناه الرجل العاقـــل ، المثقف ، المشبع بالروح الجماعية غير انشاء حضارة عالميـــة تنعم بالسلام والنظام . وهذا ينطوي على الاخذ بمبدأ الولاء لفكرة

الوحدة العالمية بوصفها الولاء الارفع الذي يدين به المرء ، واعتبار ضروب الولاء الاخرى ، للمؤسسة ، او للحزب ، او للمـــذهب الديني ، او الوطن ، شيئاً موقتاً وخاضعـــاً لبعض الشروط والتحفظات .

واكد ويلز على هذه الواقعـــة : وهي ان تدبير الشؤون العالمية مهمة من ادق المهام واصعبها ، فهي تقتضي المتصدر لها علماً واسعاً ، وضبطاً في العقل وفي الشخصية ، وهي تنطوي على قدرة المرء على دحر نزعاته العدوانية الذاتية من طريق توجيهها نحو العمل بسبيل غاية اعظم واسمى . وقـــد ناشد ويلز « متآمريه الصرحاء » ان يُعِـــدّوا انفسهم للمهمة الكبرى ، مهمة استلام السلطة وادارة دفتها بحنكة وحصافة ، وذلك بالاغـتراف من ينابيع المعرفة الضرورية وبتنمية روح الخدمة المجردة للاخرين . والواقع ان ويلز صوّر منذ سنة ١٩٠٨ ، في كتابه « الطوبى الحديثة » Modern Utopia مجتمعاً يحكمه جمهرة من الرجال * الذين يتحلون بالدربة وبالضبط الصوفي لاهواء النفس. وقد ازداد ايمانه باهمية هذه الفكرة في ما بعد .

أما النظم الديكتاتورية التي عرفتهـــا اوروبة بعيدَ الحرب العالمية الاولى فقـــد حملت ويلز على ان يضع اشد التوكيد على الديموقراطية والحرية كأساس للتصميم الاجتماعي . وعنده ان حرية اكتساب المعرفة وحق الاجتماع الحر في سبيل القيام بدور إنشائي في الحيـــاة السياسية شرطان أساسيان للتنظيم الاجتماعي

(*) وقد اطلق عليهم ويلز اسم The Samurai .

الصحيح . وإنما ينطوي حق اكتساب المعرفة اكتساباً حراً على جعلها في متناول كل انسان . ذلك ان ويلز يؤمن بأن الوقت قد حان للقيام من جديد ، وفي شكل حديث ، بمثل ذلك العمل الذي نهض به الأنسيكلوبيديون الفرنسيون ، على ان يكون هذه المرة للعالم العصري كله . إن ما نحتاج اليه ، في الواقع ، هو موسوعة عالمية جديدة . وهذا يعني القيام بمحاولة جديدة لتنظيم المعرفة وترتيبها ترتيباً نظامياً والسهر على تعديلها وتنقيحها بين الفينة والفينة ، بحيث تتفق مادتها مع آخر نتائج البحث العلمي ، والسعي لجعلها في متناول الجميع بلا استثناء . كما يعني العمل على إبقاء العلماء ، في مختلف اصقاع الارض ، على أتمّ الاتصال بعضهم ببعض .

ونظراً للأهمية البالغة التي تنطوي عليها صيانة حق الافراد في اكتساب المعرفة الحرّ وحقهم في العمل السياسي الجماعي فقد انتصر ويلز لفكرة وضع « براءة بالحقوق الانسانية الاساسية » . وليس ما يعرف بـ « إعلان سانكي » Sankey Declaration الذي لعب ويلز دوراً عظيماً في وضعه ، غير صيغة لبراءة بالقانون العالمي الرئيسي تعلن هذه الحريات الاساسية وتوضحها . ويعتقد ويلز بأنه ما لم يُعترف بهذه الحريات عاجلاً او آجلاً اعترافاً اجماعياً ، وما لم تُضمن صيانتها ضماناً عالمياً فلا مفرّ لبني الانسان من الكوارث العالمية المخيفة التي تشبه ما نعانيه اليوم من ضروب البلاء .

وكان ويلز في الثالثة والسبعين من عمره عندما اندلعت نار

الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك فلم يبدُ على انتاجه خلال سني الحرب أيما نقص في الكيف أو في الكم . ففي سنة ١٩٤٢ نشر كتابه «استشراف للنوع البشري» Outlook for Homo Sapiens فاذا هو دراسة بارعة للفكر الحديث والسياسة المعاصرة على ضوء الحاجة الى حل انشائي ما للمشكلة الكبرى التي تواجهها الحضارة . والواقع ان تحليله للحركات والنزعات التي يحفل بها عصرنا الحاضر لا يقوده الى استنتاج مضمخ بالأمل . فليس بين الحركات الفعالة التي نشطت خلال الحرب واحدة اقتنع ويلز بأنه قد تمّ لها ادراكٌ ما للمسائل الجوهرية . ومنها يكن من شيء، فقد كان المزاج الغالب على كتابه الاخير ، « انتصار الزمان » The Triumph of Time أكثر أشراقاً بالبهجة ؛ فقد بدا له أن التعديل العقلي الضروري لتزويد الانسان بالسلامة والامن ولتيسير تحقيق الامكانيات الجديدة ، قد بات قاب قوسين او أدنى .

لقد رأى الى الاحقاد القديمة تتداعى الى السقوط بعد ان بَدت لعشرين سنة خلت جبارةً عنيدة . صحيحٌ ان ما طرأ من تغيرات على الاستشراف الفكري لا يزال مقصوراً على نسبة ضئيلة من البشر، ولكن هذه التغيرات تمكّن لنفسها اليوم عند هذه القلة ، تمكيناً متصلاً يجعل غلبتها النهائية على النوع كله أمراً محتوماً .

*

وليس من شك في ان الخلود سيكتب لقصص ويلز الاولى، من مثل « تونو بونجاي » و « تاريخ مستر بولي » و « كيبس »

و « عجلات الحظ » وغيرها ، لما تنضح به من حيوية وخصب ، ومن انسانية عميقة ، ومن براعة في خلق المواقف المضحكة ، ولما تمتاز به من فكاهة غزيرة أشبه بفكاهة ديكنز، ومزج عجيب بين الواقع والخيال . وستذكر له الاجيال القادمة ، ايضاً ، قصصه العلمية الخيالية من مثل « آلة الزمان » و « أول رجال في القمر » The First Men in the Moon ، و « طعام الآلهة » The Food of the Gods و « حرب العوالم » The War of the Worlds لما تحفل به من اختراع خصب، ولقوتها كقصص، وحيويتها الفكرية. كما ستذكر له اكثر لرواياته الخيالية التي وضعها في عهديه الاوسط والاخير ، اعني « الحرب في الهواء » و « العالم مطلقَ السراح » و « الرجال كالآلهة » Men like Gods ، و « مستر بلانسوورثي في جزيرة رامبول » Mr. Blettsworthy on Rampole Island حيث نقع على مضمون اجتماعي اكبر من غير ان يبدو على المؤلف ايّ ضعف طارىء كأديب قصصي. كذلك سيُذكر ويلز بجهوده الجبارة في وضع خلاصة نافعة للعلم الحديث في « كتابه المقدس » الشهير . ولكن الانسانية يجب أن لا تنسى ايضاً نضاله طوال ثلاثين سنة او تزيد كمبشر بوحدة العالم . فقد اصطنع ويلز مواهبه العظيمة ، وطاقته الهائلة ، وجرأته التي لا حدّ لها على الباطل في عشرين او يزيد من الكتب البارعة والمقالات التي لا تحصى لينشر الفكرة القائلة بأن الدولة المستقلة ذات السيادة أمست اليوم مؤسسةً عتيقة بالية ، وليؤكد حاجة البشر الملحة الى اشراف عالميّ فعال في ميادين السياسة والاقتصاد والتربية كوسيلة لانقاذ

الحضارة من التقوّض ، بل لانقاذ الانسان نفسه من الخراب .
والحقّ ان التفكير في المستقبل كان يملأ نفس ويلز يأساً حيناً ،
وأملا عارماً حيناً آخر ؛ ومن هنا جاءت بعض قصصه الخيالية
نذيراً للنوع الانساني بالكارثة التي ستحل به فلا تبقي ولا تذر ،
في حين جاءَ بعضها الآخر صورة مشرقة لمستقبل وضاح الجبين .
ولكن جوهر تعاليمه سليم بلا خلاف ، وستقدر اجيال المستقبل
ويلز حقّ قـــدره كرائد عظيم ، وكخادم من اخلص خدّام
الانسانية الذين انجبهم التاريخ .

# ٤ . س . إ . م . جود



بين مؤلفات جود C. E. M. Joad الكثيرة صفحات عـــدة تصور حياته الخاصة ، وتساعدنا على تكوين فكرة حية عن بعض المؤثرات الرئيسية التي عملت عـلى بلورة شخصيته . ف « كتاب جود » Book of Joad يرسم لنا صورة ساخرة ممتازة عن ايامـــه المدرسية في « بلاندلز » حيث قضى سنة ونصف كطالب اول في الشعبة الكلاسيكية. ثم انه ترك « بلاندلز » وهو « جاهل كامل» او « متبربر ذكي » كما يقول هو عن نفسه ، فلم تلقنـــه مدرسة بلاندلز شيئاً من الفيزياء او علم الاحياء ( البيولوجيا ) او العلوم الاجتماعية والسياسية ، ولم يكن يعرف شيئاً من عـــلم طبقات الارض ( الجيولوجيا ) والفلك ، بل لم يكن قد سمع بعد بعـلم النفس . وعلى الرغم من دراسته الصالحة للغتين اليونانيـــة واللاتينية فقد كان يجهل فلسفة افلاطون وارسطو ؛ اما مذاهب كبار الفلاسفة المحدثين فلم يكن يعرف منها شيئاً على الاطلاق . ليس هذا فحسب . بل ان معرفته بالتاريخ لم تكن تذهب الى ابعد من معركة واترلو ؛ وكانت مقتصرة ، في ما عدا بعض الالمام بالعصور القديمة ، على التاريخ البريطاني . فاذا انتقلنا الى حقـل الادب وجدنا انه لم يقرأ لوجه المتعة المجردة كتاباً واحداً جديراً بالمطالعة ، حتى اذا غادر تلك المدرسة كان على جهل يكاد يكون تاماً بالادب الانكليزي . وقد اقتنع جود منذ ذلـك الحين ، ولا يزال ، بان البرامج التعليمية التي تقدمها المدارس الانكليزية العامة الى طلابها برامج عقيمة لا تعدّ النشء للحياة العصرية.

وربح جود منحة دراسية مكنته من الالتحاق بكلية باليول

في جامعة اوكسفورد حيث درس التاريخ والفلسفة . والواقع انه احب كلية باليول حباً « بعثه الاعجاب ثم اذكى ناره ، على الايام ، عرفان الجميل . » وفي تلك الفترة كانت الجمعية الفابية في ذروة نشاطها وشهرتها ؛ وتحت قيادة ج. د. ه. كول غدا صاحبنا اشتراكياً . ولقد حُكم عليه مرة بغرامة مالية لانه قاد مظاهرة قام بها جماعة من المضربين الى « نصب الشهداء » حيث القى خطاباً ثورياً . وفي اوكسفورد دون غيرها ادرك جود ، اول ما ادرك ـ وكان خطيباً مفوهاً ـ أية لذة ينطوي عليها التلاعب بعواطف جمهور المستمعين واية بهجة يستمدها المرء من احساسه بان النظارة تتاوج ، في عطف ومشاركة ، مع كلماته . والحق ان نزعة جود الى الجد كانت تُلطف دائماً بالظرف والفكاهة ، وهو يصف نفسه فيقول انه كان « المضحك المجاز لاتحاد اوكسفورد » . وفي اولى سنواته باوكسفورد شارك جود في ادارة ناد نظمته احدى الجماعات المسيحية للصبية المتشردين في الاحياء القذرة المزدحمة بسكانها . ولكن سلطان شو وويلز على نفسه ، في السنوات التالية ، جعله أميل الى التشاؤم ، فهجر النشاط الديني الى النشاط السياسي مرة واحدة .

وليس من شك في ان برنارد شو لعب الدور الاكبر في تكوين عقل جود الذي كان يتعبد له ، او يكاد ، في عهد دراسته . والواقع ان جود كان يعدّ شو اعظم كتاب الانجليز في جميع العصور ، وهو لا يزال على رأيه هذا الى اليوم . واسلوب جود في الخطابة وكثير من خصائصه الشخصية متأثرة ، قليلاً او كثيراً ،

تأثرا واعياً ببرنارد شو . ولعله مدين لشو بذلك الادعاء للامتياز العقلي، وبازدرائه لبلاهة الرجل العادي وجبانته ، ولتفاهة اهدافه وحقارة أغراضه . صحيح أن تعاقب السنين قد أنضج جود وجعله اكثر انسانية ، ولكنه لا يزال يعتقد ان العالم خليق بأن يكون أسعد وأحسن لو ان معظم الناس كانوا أكثر شبهاً به مما هم في الواقع .

كذلك تبنى جود مذهب شو في التطور الخلاق ولامار كيته* الجديدة . ذلك بأن شو كان قد شايع صموئيل بطلر في انتقاده تعليل داروين للتطور ، على اساس من الانتخاب الطبيعي ، في المحل الاول . واخذ هو وبطلر بنظرية سابقة قال بها لامارك ومحصلها ان الجهد الذي تبذله الكائنات لتكييف نفسها وفق مقتضيات البيئة هو العامل الاول في التطور ، واضافا الى ذلك فكرة مبدأ خلاق ذى هدف ، فهو يوجه التطوّر ، وهو صاحب الفضل الاول في ما وصلت اليه اشكال الحياة العليا من تقدّم . وقد أطلق شو على هذا المبدأ اسم « قوة الحياة » . وفي ما بعد نادى جود في كتابه « المادّة ، والحياة ، والقيمة » Matter, Life, and Value بشكل جديد لمذهب التطوّر الخلاق هذا . فقد ذهب شو الى ان الحياة تمتاز بذلك الحافز الذي يدفع بها الى ما وراء ذاتها ، وقال بأن خطّ التقدّم يتجه نحو وعي

* نسبة الى لامارك ، العالم الفرنسي ، صاحب المذهب الذي يفسر التطور بما دعاه « دفعة الحياة » ، في حين يفسره داروين بالانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح . ( المعرب )

اكبر للذات ، وقدرة اعظم على تقرير مستقبل الانسان ومستقبل تطور تقريراً واعياً . اما جود فيذهب الى ان مفهومي «العليا» و « الدنيا » اللذين يصطنعهما شو انما ينطويان على وجود القيمة . فالحياة لا يمكن ان تعتبر « عليا » او « دنيـــا » بلغتها هي ؛ وفكرة النماذج المتقدمة في مضمار الرقي تنطوي على ان في الكون قيماً خارجَ عملية الحياة نفسها ، قِيَماً تشير الى اتجاه التطور . وهو اذ يتكلم ، كما فعل شو في « الانسان والانسان الكامل » عن اشياء افضل أو اصحّ أو اجمل من اشياء اخرى ، انما يصطنع مفهوماً يختلف عن مفهوم الحياة ، يصطنع مفهوم القيمة . وقد فهم جود القيمة على انهـا شيء متميز مستقل كل الاستقلال عن كل من الحياة والمادة ؛ فهو يفترض ان إحداهما – الحياة – قد عبرت عن نفسها بطريقة ما في الشيء الآخر – المادة – ، وان غرض الحياة هو ان تتطوّر عن طريق المـــادة حتى تحقق وعياً أكمل لشيء ثالث هو القيمة .

وكان مذهب جود الفلسفي الاول محاولة للتوفيق ما بـــين فلسفة شو وبرجسون والفلسفة الافلاطونية التي سبق ان درسها في اوكسفورد ، لان عالم « الصور » الذي قال به أفلاطون كان عالم قيمة . فقد ذهبت نظريته في ذلك العهد الى ان من المسلم به ان ثلاثة اشياء ، مختلفة كل الاختلاف ومستقلة كل الاستقلال ، قد التقت – بفضل مصادفة ما لا نستطيع تعليلها لكي تتفاعل. ولكن مثل هذا الاعتقاد يبدو له اليوم بعيداً عن الاحتمال ؛ فهو يرجح فرضاً جديداً يقول بأن هـذه الاشياء الثلاثة لا تعدو ان

تكون مظاهرَ مختلفة لوحدة مفردة ، او صنع إلـه قادر خلاق .

وكان شو والكسندر C. S. Alexander قد قالا بأن الـه ليس هو السبب الاول ولكنه ثمرة عملية التطوّر ، وبذلك يكون الله نهاية التطوّر لا بدءه ، ويكون هو المخلوق لا الخالق ، خلقه في الواقع الانسان نفسه ؛ وذهبا الى ان الانسان اصبح خلال مراحل النشوء والارتقاء واعياً ذاتـه ، وبذلك انتهى الى ان يكون هو منظم المستقبل وواضع تصاميمه. ونزع جود ، في وقت ما ، الى مشايعة شو في النظر الى الله والى هدف التطور على أنهما شيء واحد ، اما اليوم فهو يقول بأن ثمـــة تناقضاً في الفكرة القائلة بأن الحياة – بوصفها حافزاً غير واعٍ – تستطيع ان تتقدم تقدماً هادفاً نحو آفاق اسمى . انه يرى ان ايمـا هدف قد تنطوي عليه الحياة يجب ان يكون قائماً منذ البدء ، وانه لما كان الشيء اللاواعي لا يستطيع ان يريد ، ارادةً واعية ، خَلْقَ شيء مهما يكن ، فيجب أن يكون الهدف قد وُجد في عقل كائن اسمى هـو الذي بـدأ عملية التطوّر . ومحصل هذا ان جود قد عاد الى الاعتقاد ، الذي رفضه في وقت من الاوقات رفضاً قوياً ، بالـه خالق للكون .

وجود يقول عن نفسه ، الآن ، بأنه مؤمنٌ ، وثنائي dualist . إنه ثنائي لأنه عاجز عن الايمان بان الشر هو باي معنىً من المعاني شكلٌ من أشكال الخير ، أو خَلقٌ من صنع الله ، ومع ذلك فالشرّ يبدو له ، في كثير من الجلاء ، عنصراً من اكثر العناصر واقعية وأعظمها شأناً في الكون . والحق أن أحداث التاريخ الاخيرة ، قـــد زادت إدراك جود للشر ، كعنصر واقعيّ في

الكون ، قوةً إلى قوة . وقـــد أعاد لويس C. S. Lewis مؤخراً التعبيرَ عن الحجج التقليدية التي تحاول ان تثبت أن هذا العـــالم افضل العوالم الممكنة ، وأن الشر منسجمٌ مع الاعتقاد الفلسفي بأن الكون انما نشأ من جوهر فرد ، ومع صفة الله الخيرة . ولكن جود يجد نفسه عاجزاً كل العجز عن قبول هذه الفكرة .

وفي سنة ١٩١٤ التحق جود بالمصلحة المدنيـــة من المجلس التجاري ، التي اصبحت بعدُ وزارة العمل . وظل في منصبه ذاك حتى عين رئيساً لدائرة الفلسفة وعلم النفس في كلية بير كبك Birkbeck سنة ١٩٣٠ ولكن مشاغله في « المصلحة المدنية » لم تحل دون تأليفه عدداً كبيراً من الكتب نجح في بعضها نجاحاً عظيما . ومن آثاره الأولى « المتعالمون » وهي قصة قصد فيها الى نقد الفابيين والهزء بهم . والواقع أن أخلاق جود الاجتماعيـة كانت في أول الأمر تنزع الى التحدي والعدوان ؛ كان شديد الغرور ، يستشعر أنه على امتياز عقليّ عظيم ، ويزدري « الرصانة » او « الوقار » البريطانيين . وكان الفابيون ، على الرغم من آرائهم التقدميـة ، ينزعون الى التربصّن والمحافظة . ويبدو أن جود إنما هدفَ من قصته هذه الى الانثار لنفسه من كبـــار الفابيين الذين عارضوه معارضةً شديدة . ولا جدالَ في أنّ « المتعالمون » ضئيـلة الحظ من النجاح ، كقصة ، ولعلّ جود راضٍ بان يطويها النسيان . وأيا ما كان فأن في اسلوبها حيوية ونشاطاً ، وهي تُبرز أقوى الأبراز شخصية جود الشاب وآراءه .

وفي خلال الحرب العالمية الأولى كان جود داعيـةَ سلام .

فقد اعتبر الحربَ ضرباً من الجنون الاجماعي يتعين على كل رجل حصيف أن يبرأ منها، واعتقد ان الوسيلة الوحيدة لاجتناب الحرب هي أن يأخذ عددٌ كافٍ من الناس على انفسهم ميثاقاً غليظاً ليحجمُنّ عن الاشتراك فيها مهما تكن الظروف والأحوال. لقد آمن بأن « التسويات » التي تحدثها الحرب لم توفق يوماً الى تسوية شيء على الاطلاق ، بالمعنى الاصيل للكلام ؛ كل ما تقدر هذه التسويات عليه ، ان تغرس بطريقة تكاد تكون محتومة ، بذورَ منازعات جديدة . وفي فترة ما بين الحربين العالميتين واصلَ جود بثّ آرائه السلمية . فقد ادرك ان معاهدة فرساي ستخلق مزاجاً واحوالا تجعل نشوب حرب جديدة افظع من الاولى أمراً محتملًا ، ان لم نقل أمراً محتوماً ، واستشعر ان الحرب الجديدة خليقة اذا ما وقعت بتدمير الحضارة الحديثة بالكلية . وعلى أية حال فلم تكد تندلع نيران الحرب العالمية الثانية حتى غيّر جود موقفه ؛ ومع انه كان قد تجاوز ، سنة ١٩٣٩ ، سن الخدمة العسكرية فلم يكن في وسعه ان يشارك في القتال الفعلي ، فقد بذل اقصى ما يستطيع ، وبخاصة من طريق وزارة الانباء ، ليُسهم في المجهود الحربي . ذلك بان جود استشعر انه ليس ثمة بديل من الحرب لمقاومة النازية التي كانت تهدد قيم المدنية الغربية باعظم الاخطار .

ولعل كره جود للعنف كان السبب الرئيسي في معارضته للاشتراكية بشكلها الماركسي . فقد ذهب الى القول بانه اذا لم يكن من سبيل لتحقيق الاشتراكية غير الثورة والعنف ، كما

يؤكد الماركسيون ، فانه يفضل الاستغناء عنهـا . لقد رأى في الروسيا مقدار البؤس والشقاء والخسارة في الارواح ، التي سببتها الحرب الاهلية والنضال الثوري ، وانتهى الى الاعتقاد بأن الآلام التي ينتظر ان يحدثها الاضطراب الثوري في بلد كبريطانية جديرة بأن تكون اعظم نسبياً ، لان بريطانيـة هي دون الروسيا من حيث الاكتفاء الذاتي في ميدان الاقتصاد ، ولأن حياتها الاقتصادية أدق وأشد تعقداً وتداخلاً .

ليس هذا فحسب . بل ان معارضته للماركسية كانت ترجع ايضاً الى ايمانه القوي بالحرية الفكرية . فالماركسي يجعـــل من تدمير الرأسمالية هدفه الرئيسي ، فهو من اجل ذلك مستعد لان يضحي بالحرية . اما جود فيرفع الحرية مقاماً أعلى من الاشتراكية . وقد استعرض مذهب مل Mill في الحرية في كتابه « الحرية اليوم» Liberty Today ليؤكد رأيه القائل بأن علينا ان نجعل من صيانة حرية المفكرين ورجال الفن اهم واجبـات الدولة ؛ وكثيراً ما كتب جود في بيان بليغ ، تمجيداً للروح العقلانيـة rational ، ولفضيلتي الاقناع والتسامح . وهو يذهب الى ان المجتمع الافضل هو ذلك الذي يمنح فيه اعظم قدر من حرية التطور في جو من النقد وحرية الانباء . وفي كتابه « عودة الى الفلسفة » Return to Philosophy انتقـــد جود ألدوس هاكسلي و د. ه. لورنس D. H. Lawrence لما اعتقده تأييداً منهما اللاعقلانية Irrationality فهو يعتقد – ولعل اعتقاده هذا يناقض الادلة الواقعـــة – ان الانسان هو في أعماقه عقلاني يتقبل الحجة ويقتنع بها ، بحيث اننا

اذا ما شرحنا له ، في وضوح وقوة كافيين ، الآفات التي يعانيها العالم وواصلنا عملية الشرح هذه فترة صالحة من الزمان فعندئذ نجد الناس خليقين ، اذا ما كانت الحجج سليمة ، بأن يقتنعوا بها احسن الاقتناع وأتمه . والواقع ان جود اعتبر النزعة الى إنكار التفكير العقلاني ، هذه النزعة التي لاحظ نموها المتعاظم في العقد الرابع من القرن الحالي ، ظاهرة تدعو الى القلق الشديد . وعنده ان النازية تمثل القمة العليا في هذه النزعة بوصفها تمجيداً للاعقلانية الخالصة .

وكتب جود يمكن ان تصنف الى اربع طبقات رئيسية . فقد عالج كثيراً من مشكلات العصر الخلافية ، حتى ليندر ان تجد قضية عرضت على بساط المناظرة ، في ايامنا ، ولم يلعب جود فيها دوراً فعالا . وهذه المؤلفات هي في جوهرها محاولة للتعبير عن فلسفة العقل في ما يتصل بمشكلات العصر . ففي كتاب « تحت الضلع الخامس » Under the Fifth Rib نشر جود « براءة للعقلانيين » ، Charter for Rationalists والواقع انه سعى الى ان يعرض هنا مجموعة من الاصلاحات الواسعة التي اعتقد ان من الضروري ان يتبناها ويبشر بهـا كل من يؤانس في نفسه الاستعداد لاخضاع حياته للعقل ، لا للعرف والتقليد والخرافة . وقد أوصت البراءة بأصلاح قوانين الطلاق ، وبأباحة تعقيم المعتوهين وأضرابهم تعقيما اختيارياً ، والغاء الرقابة على المسرحيات ، وفصل الكنيسة عن الدولة ، وصيانة جمال الريف من التشويه الخ ... وواضح ان معظم هذه الاصلاحات ( التي تجسدت في ما بعد في برنامج « العصبة

التقدمية » التي ساعد جود على انشائها ) تنطوي على توسيع مختلف الوانه للحرية الشخصية .

هـــذا في ما يتصل بالنوع الاول من مصنفات جود . فاذا انتقلنا الى النوع الثاني وجدناه ينتظم عدداً من الكتب التي تلخص او تبسّط جملة الفكر الفلسفي والاجتماعي قديماً وحديثاً . واعظم الكتب شأناً « الهادي للفكر الحديث Guide to Modern Thought » و « الهادي لدراسة علم الاخلاق والسياسة Guide to the Study of Ethics and Politics » و « الهـــادي للفلسفـة Guide to Philosophy » وهذه الاثار تكشف ، احسن ما يكون ، عن براعة جود في العرض المركز الواضح . ولعلها افضل ما وضع للناس من مقدمات لفروع المعرفة الاساسية التي تعالجها .

اما الطبقة الثالثة من مؤلفات جود فتصور حياته الخاصة ، واهمها « كتاب جود » و « عهد جود The Testament of Joad » وفي الكتاب الاول ، الذي يتحدث فيه المؤلف عما يحب ويكره وعن تاريخ آرائه وتطورها ، نرى كيف شجع وطور ، بطريقة واعية متروىً فيها ، اشواقه لمباهج الحواس ومباهج الروح جميعاً . فهو ينص ، مثلاً ، على ان الطعام والشراب يمثلان مسرتين من اكبر مسرات الحياة عنده . ففي سنة ١٩١٤ دعاه احد اصدقائه لمأدبة حافلة ، ثم عنفه بسبب من « لا مبالاته الإجرامية بالطعام الجيد » . فترك هذا التعنيف اثراً باقياً في نفس جود ، الذي انتهى الى ان يصبح ناقداً قاسياً للانكليز بسبب من اهمالهم القومي لفن الطهو . . .

وجود مولع ايضاً بالاختلاط بالنساء . ولكنه يعترف بأنه يكره المرأة بقدر ما يحبها . فهو لا يكاد يحب امرأة ما حتى يملها ويستثقل ظلها. وهو يرى ان مقدرة المرأة في الحديث دون مقدرة الرجل بكثير . ويلاحظ ان الاشواق الموضوعية الخارجية تكاد تكون مفقودة ، نسبياً ، عند النساء ؛ و « ليس لهن من الآراء نصيب كبير،ولكنّ فيضاً من الآراء يندفع أبداً الى رؤوسهن». ومن هنا كانت الفكرة دائماً ، عند المرأة ، إما خبيثة وإما شريفة ولكنها نادراً ما تكون مجرّد صواب أو خطأ . وهكذا تنزع المناقشة في الموضوعات العقلية ، مع النساء ، الى ان تصبح منازعات يغيب في صخبها المنطق والفكر .

وجود من محبي الكتب والموسيقى المولهّين ، ولكنه يحدّثنا أن نزعته النامية لتقدير الجمال كادت تذوى عندما بلغ الخامسة والعشرين . وهو لا يحب غير نفر قليل جداً من غرانيق الادب الحديث ، هذا إن لم نقل إنه لا يحب أحداً منهم على الاطلاق . وجيمس جويس James Joyce وفرجينيا وولف Virginia Woolf ود . ه . لورنس ، وألدوس هاكسلي وغيرهم من كتّاب العصر لا يحظون بأعجابه إلا قليلاً . إنما يستأثر بأعجابه روائيو القرن التاسع عشر ، وبخاصة تروّلوب Trollope ؛ وهو شديد الاكبار لبطلر Butler ، وبرنارد شو ، وويلز ، وقد تأثر بهم كثيراً ، ولكن أيا من الكتاب الذين لمعوا بعدهم لم يترك في نفسه اثراً عميقاً ولم يكن له شأن ما في تكوين فلسفته .

ويعتبر جود الموسيقى اعظم الاشياء شأناً في العالم ؛ وهو

يستمد منها متعة لا يستمد مثلها مــــن أي هواية مفردة غيرها . وهناك ، في نظر جود ، اسباب فلسفية تحمله على اعتبار الموسيقى اهمّ ضروب النشاط الخاصة بالنفس الانسانية . ولكنّ جود يكره الموسيقى الحديثة كرهاً شديداً . إنها لا توقـــع في نفسه الضجر فحسب ، ولكنه يجدها تافهة لا طعم لها ، هذا إذا لم يجدهـــا كريهة منفرة ويفهمها عـلى أنهـــا « تعبـــير موسيقيّ عن اعصاب مُرهقة فهي ترهق بدورها اعصاب المستمعين اليها » . وهنا يضيف جود قائلاً : « إن إلغاء الموسيقى كلهـا ، باستثناء حفنة ضئيلة من آثار شوبرت ، وحفنة اضأل من آثار شومان ، وبعض ما وضعه « قيصر فرانك » ابتـــداء من سنة ١٨٢٧ عندما توفي بيتهوفن ، ليوقعُ في نفسي من الارتيـــاح مقداراً لا يقلّ عن ذلك الذي يُوقعه فيها إلغاء السيارات ! »

والواقع ان كره جود للسيارات ناشيء ، بعض الشيء ، عن حبه للريف . ففي السنوات التي فصلت ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية كان لنموّ المدن الكبرى ، مع ما رافقه من بناء البيوت على جنبـــات الطرق في الضواحي ، ولتعاظم سلطان السيارة اثر بعيد في تشويه جمال بريطانية . ويحدثنـــا جود في كتابه هذا كيف انتهى هو واصدقاؤه الى الاعتصام بالصمت في كل ما يتصل بالريف . فـــإذا ما اكتشفوا قرىً وخانات جميـلة ، وتلالاً وبحيرات وكهوفاً وأودية رومانتيكية كتموا اكتشافهم هذا وضنّوا بالبوح بـه وكأنه سرّ من الاسرار ...

أما « عهد جود » فيضرب على وتر أعمق من سابقه ويصوّر

فترة متأخرة من حياة جود . ففي سنّ الاربعين ، اصيب صاحبنا بمرض خطير قاده الى امعان الفكر في الالم والموت والله . وهو يتكلم هنا ، في لهجة عاطفة ، عن الخبرة الصوفية ، آسفاً أن تكون مقدرته في هذا الميدان محدودة . وهو على مثل اليقين من ان الصوفيّ يفهم عالم القيمة ويقدره قدراً خاصاً، ويحقق من طريق البديهة المباشرة شكلاً من المعرفة ليس في ميسور العقل ان يهدينا اليه . يقول جود : « أنا اعتقد أن وراء عالم الحسّ عالماً آخر غير محسوس . هذا العالم اللامحسوس الذي دعاه افلاطون الحقيقة يعلن عن نفسه، ولو اعلاناً غامضاً، من طريق العالم المادي الذي نعرفه بحواسّنا. » وانما يتمّ للصوفي ، في نظر جود ، فهمٌ حدْسيّ للعالم اللامحسوس ، عالم الحقيقة .

والجمال ، في نظر جود ، من ابناء العالم اللامحسوس . وعلى هذا فأنّ تجلي الجمال في الاشياء التي نعرفها بحواسنا هو مصدر ذلك المعنى الذي يستثير فينا حاسّة الاعجاب الجماليّ به . والحق أن ابتهاج جود الذي لا يوصف بعزف روائع موزار في غلايندبورن والمعرض الصيني الذي اقيم في اروقة بورلنجتون ، خريفَ سنة ١٩٣٥ ، أوحى اليه بكثير من التعليقات اللامعة في « عهد جود » حول قيمة الجمال .

واخيراً، فقد كتب جود عدداً من الكتب بسط فيها تفسيره الشخصي لمشكلات الحياة والفلسفة . وقد رأينا من قبل كيف اطرح وجهة النظر التي قال بها في اول كتبه الفلسفية الهامة، أعني « المادة ، والحياة ، والقيمة » . اما كتابه « مظاهر فلسفية في

العلم الحديث ، فنقدٌ بارع للاراء الفلسفية التي ذهب اليهـا بعض علماء الفيزياء والفلك ، وبخاصـــة جينز Jeans وأدّنجتون Eddington ، لانه يعتبر ان هذين الرجلين ، على مكانتهما العلمية الرفيعة ، قـد تعدّيا حدود اختصاصهما في ما يصدران عنـه من تفكير سياسي ، ووقعا في اخطاء فكرية ابتدائية .

وليس من ريب في ان كتاب جود « فلسفـةٌ لعصرنا » Philosophy for Our Times ، المنشور سنة ١٩٤٠ ، تعبير واضح رائع عن الفكرة القائـلة بأنّ القِيم ، وبخاصة قيم الخير والحق والجمال والسعادة ( التي يعتبرها جود احدى القيم الاساسية ) هي واقعية موضوعياً ، وانهـا هي الاهداف الجديرة بالرغبـة الانسانية . ذلك بأن جود يعتقد أن العلم لا يستطيع ان يقـدم الينا تفسيراً مقنعاً للقيم ، وان صحة الاعتقاد بالواقعية الموضوعية للقيم يجب ان تُجلى ، لا بالطريقة العلمية ،ولكن بالتفكير الفلسفي عـلى اساس الخبرة ، وبخاصة في ميدان الفن وميدان الدين . ان طريقة العلم هي طريقـة الملاحظة والاختبار ؛ والعلم يقدّم الينا عرضاً وصفياً للاشياء ، ولكن تقصيره يتبدّى عندما نحاول ان نفسر ما الذي يجعـل الاشياء ما هي عليه ، وما هو الهـدف الحق للحياة الانسانية ، وما هو الاساس الذي تقوم عليه قيمة الطرائق التي يصطنعها العلم نفسه . وانما كتب جود هذا الكتاب لانه يرى ان اعادة الايمان بالحقيقة الموضوعية للقيم الازلية ضرورة حيوية في عصرنا المضطرب .

ولعل كتاب جود الاخـــير « الله والشر » God and Evil

اعظم كتبه على الاطلاق . فقد تأثر تأثراً بالغاً ببذور الشر التي وقعت في نفسه من طريق تعاظم النازية ، ومن طريق الحرب العالمية الثانية ، فهو لا يكتفي بالشك في جماع الاساس الذي نهض عليه مذهبه السابق ، بل يعدو ذلك الى درس شخصيته هو واستكناه الشر الكامن فيها . والحق ان قليلاً من الكتاب سلمّوا بما تنطوي عليه نفوسهم من أخطاء خطيرة ، في مثل الصراحة التي صدر عنها جود في كتابه الاخير . وفوق ذلك فكتاب « الله والشر » يمثل تحولا جديداً من جود نحو الدين كمصدر للأمل والايمان . فهو يتنكر ، منذ اليوم ، للنزعة « الانسانية » الوثنية التي تعلق بها من قبل ، ولم يبق شديدالايمان بالعقل البشري شأنه في ما مضى ، مدركاً بأشد مما كان يدرك عظم الفساد الكامن في قلب الانسان ، واستحالة التغلب على هذه الآفة من غير مساعدة الله . ان جود لينادي اليوم بأن الله يتجلى للانسان من طريق الخير والحق والجمال ؛ وان الله هو الكائن الودود الذي خلق الانسان ؛ وان الانسان قادر على ان يعبر في حياته عن الروح الالهية بالسعي في سبيل الخير والحق والجمال ؛ وهكذا يكون في استطاعته ان يتغلب ، من طريق النعمة الالهية ، على الشر تغلباً ما كان ليتم له من غير هذا التأييدالعلوي.

ولقد أتى على جود حين من الدهر أنكر فيه المسيحية . اما اليوم فهو يجد نفسه منجذباً اليها . ومع ذلك لا يستطيع ان يقبل العقيدة التقليدية بحذافيرها . انه لا يؤمن مثلًا بأن السيد المسيح ذو طبيعة إلهية . وهو يرى في يسوع الاناجيل صورة « انسان »

كثير الاخطاء . ومهما تكن شخصية يسوع الحقيقي فان يسوع الذي تتحدث الاناجيل عنه يبدو ، في عين جود ، انساناً فظاً بعض الشيء ، انساناً يتهدد الخاطئين بعذاب الجحيم ، ويجلد اصحاب الدكاكين لمواصلتهم اعمالهم التجارية في الهيكل ، ويلعن شجرة التين غير المثمرة . ليس هذا فحسب ، بل ان يسوع ليبدو له سريع الغضب على اولئك الذين يختلفون معه في الرأي . وجود لا يشك في ان يسوع كان يتمتع بنصيب كبير من التبصر الديني ، ولكن حكمته تبدو له ممتزجة بعدم الكمال الانساني . وهو يرى ان اعتبار المسيح حلقة في سلسلة المعلمين الدينيين الكبار اقرب الى العقل من اعتباره إلهاً .

*

لم يكن جود مفكراً عظيما او مفكراً مبتدعاً . ولكن كتاباته تثير الشوق وتدعو الى التفكير ، وهو من اوضح وألمع معلمي الفكر الحديث في عصرنا . وهو ككثير من المفكرين الذين تأثروا بتجارب الحربين العالميتين الاولى والثانية وبفترة الازمة التي تراخت في ما بينهما ، قد انساق الى الاخذ بوجهة نظر دينية في الحياة ، وان تكن آراؤه لا تزال عرضة للتبدل والتغير . ولعل عقل جود أدق سجل نملكه لاتجاهات الفكر في ايامنا . .*

* سننقل الى القراء قريباً كتاباً من كتب جود الفلسفية في هذه السلسلة « علم نفسك » [ المعرب ]

# ٥ . جوليان هاكسلي



/

لم يرث جوليان هاكسلي Julian Huxley كثيراً من عبقرية ابيه الشهير ، توماس هنري هاكسلي ، فحسب بل لقـــد وقفَ حياته على دراسات مشابهة وأهداف مماثلة . كان هاكسلي الكبير رائداً من رواد البحث البيولوجي الحديث ، فسار جوليان على آثاره . وبعد أن لمع نجمه كعالم بحّاثة في كلية «ايتون» وفي كلية « باليول » باكسفورد انصرفَ إلى القاء المحاضرات ، وتحبير المقالات في الموضوعات البيولوجية ، والى البحث العلمي في علم الاحياء ( البيولوجيا ) . ولقد شغلَ على التعاقب منصبَ استاذ مساعد في مؤسسة ريسي Rici Institute في تكساس ، ومنصب محاضر أول في علم الحيوان باكسفورد ، ومنصب استاذ في علم الحيوان في كلية الملك بلندن،ثم منصب استاذ في الفيزيولوجيا في المعهد الملكي، فاظهر في هذه المناصب كلها نشاطاً متعدّد الجوانب كالذي عُرِف به توماس هنري هاكسلي من قبل . والواقع أنــه طبّق المفاهيم التي استخلصها من دراساته البيولوجية الواسعة على مشكلات عصرنا الرئيسية كلها في سلسلة من المؤلفات التي تنضح بالفكر العميق ، والتي تثير أعظم الشوق،وتتمتع باكبر الاهمية .

وفي سنة ١٩٢٣ نشر جوليان هاكسلي « مقالات عالم في البيولوجيـــا » Essays of a Biologist ثم اتبعهـا سنــة ١٩٢٦ بـ« مقالات في العلم المبسّط » : Essays in Popular Science وقد عُني هاكسلي في بعض هذه المقالات بان يُفسر ، في وضوح كثير ، احدث الاكتشافات البيولوجية . وعنده أننـا نقترب اليوم من عصر البيولوجيا الذهبي ، وان علم الاحياء قد بلغ مرتبة

تماثل تلك التي بلغتها العلوم الطبيعية منذ مئة سنة ، وان الاثر الاجتماعي للاكتشافات البيولوجية الحديثة ان يكون أقل انقلابية وثورية من ذلك الذي كان لنتائج البحث في الطبيعيات ؛ فليس من ريب في أن الاكتشافات التي نتجت عن دراسات مندل * Mendel بصورة نظامية كانت مفيدة الى ابعد الحدود . وقد حاول هاكسلي ، في عدد من مؤلفاته ، ان يرسم صورة حيّة لتلك التطورات الحديثة في العلم البيولوجي التي ستعود على الانسان بمنافع كثيرة ، في حين حاول أخوه ، ألدوس هاكسلي ، ان ان يصور في كتابه « العالم الطريف » و « بعد أصياف ** عدة » كيف تستطيع هذه الاكتشافات ، اذا ما أسيء استعمالها ، ان تدمّر اسمى آمال الانسانية . ويعتقد جوليان هاكسلي ، في المحلّ الاول ، ان البيولوجيا قد تعلمّنا في وقت غير بعيد سرّ استعادة الشباب وإطالة العمر . ذلك بان إماطة اللثام عن خصائص الغدد الصُمّ تُعتبر من اروع الاكتشافات الحديثة واجلّها شاناً . فنحن نعرف اليوم ان الاعتلال الجسماني العام ، والحساسية المفرطة ، والسّمن غير الطبيعي ، والهرم المبكر جداً ، وقصر الذراعين والرجلين بشكل بالغ ، والهدوء الذي لا يفسح مجالاً للعاطفة والذي يقارب البلادة والخمول — نعرف ان كل اولئك ترجع ، على العموم ، الى حالٍ شاذة في الغدد الصمّ ، وان في الامكان معالجتها

---

* عالم نمساوي قام باختبارات واسعة في تطعيم النباتات وقوانين الوراثة التي تخضع لها ( ١٨٢٢ — ١٨٨٤ ) [ المعرب ]

** جمع صيف .

بالمستحضرات الطبية الخاصة بالغدد . وما دام الامر كذلك فهل يكون عجيباً ان يؤدي ازدياد معرفتنـــا بخصائص الافرازات الغدّية الى الاحتفاظ بالشباب والحيوية حتى سنّ عاليـة جداً ، فضلاً عن اطالة امد الحياة نفسها ؟

ان في ميسور البيولوجيا ان تضاعف سيطرة الانسان عـلى بيئته المادية والعاطفية . فأنواع الحنطة الجديـدة ،المكتشفة بفضل التقدم الذي حُقق في ميداني الوراثة والتطور Genetics ، تغل في كل فدّان اضعاف ما تغله انواع الحنطة التقليدية المعروفة . والواقع ان نشوء هـذه الانواع الجديدة قـد جعل في ميسور الانسان ان يقوم بزراعة ناجحة للحنطة على مبعدة مئة ميل من القطب ليس غير ، وان يستثمر مناطق شاسعة كانت تعتبر ، من قبل ، نصف صحراوية . ليس هذا فحسب . بل ان ذراري البقر الجديدة لتنمو بسرعة مضاعفة بالنسبة الى الابقار التي تتعهدها القبائل المتوحشة ، وتدرّ ضعفي مقدار اللبن ، او ثلاثة اضعاف هذا المقدار ، الذي تدرّه الابقار العادية سنويـاً . كذلك تعلمنا البيولوجيا كيف نقضي على الحشرات الضارّة بضروب النبات ، وكيف ننقذ العالم من جراثيم الامراض : فقـد قضي على السوسة التي كانت تتهدّد قصب السكر في هاوايي Hawaii ، باشدّ الخطر ، وأُنقذت غابات اميركا الشمالية من الآفات التي كانت تتلفهـــا ، وأبيدت الحمى الصفراء ابادة شبه كاملة ، وأُنقص الاذى الناشيء عن جراثيم الحمى القرمزية وغيرها من الامراض الى نسب لا تكاد تذكر .

وليس من شك في ان التطور الجديد في دراسة العقاقير جدير

بان يُشرع ابواب الصحة والسعادة في وجـــه الجنس البشري . فالواقع ان نسبة الوفيات الناشئة عن كثير من الامراض قـــد خُفضت تخفيضاً كبيراً بفضل العقاقير التركيبية الجديدة. ولكن هاكسلي يعتقد ايضاً اننا سنكتشف في المستقبل عقاقير لا تقتصر مهمتها على مجرد شفاء الامراض ، بل تعـــدو ذلك الى تعريف الانسان بخبرات جديدة . فسكان « العـــالم الطريف » لألدوس هاكسلي يصطنعون عقاراً لا يشفي من الضعف العام شفاءً حاسماً فحسب ، ولكنه مصدر نشوة ذهنية بريئة ايضاً . والواقع ان الخمر والأفيون ، اللذين يُصطنعان اليوم لمثل هـــذا الغرض ، يوقعان في جسم متعاطيهما اذى كبيراً. ولكنه لا يزال في الامكان اكتشاف عقاقير تكون بمثابة منبه لاذ" ومفيد من غير ان يعقبها اي رجع ضار . فقد تُكتشف ، مثلا ، بعض المواد القادرة على تنبيه عقل الانسان وفقاً لنسبة مئوية ما ، وبذلك تزيد في فعاليته ونشاطه .

أضف الى ذلك ان الدراسة العلمية لخصائص البشر العقليـة والجسمانية قد تجعل من اليسير تنشئة اطفال لا تعصف في نفوسهم، شأن كثير من اطفالنا اليوم ، رياح المخاوف غير العقلانيـــة irrational ، اطفال لا يضيعون كثيراً من طاقاتهم العقليـــة بسبب من الكبت والانهاك المبكر غير السوي abnormal في قضايا الجنس ، وهو ما شكا منه الناس ولا يزالون حتى يومهم هذا. وليس بعيداً ان يتمكن علم الاحياء وعلم النفس ، خلال القرن التالي ، من اعطائنا جيلا يتفجر بالطاقة العقلية والجسدية ويتمتع

بنزعة شديدة الى التفكير العقلاني وبقوة ضخمة على الابتكار والابداع .

لقد كتب هاكسلي ، في وضوح كثير ، كمبسط للاكتشافات البيولوجية ، وكتب ، في خيال خصب ، كمتنبيء عن مستقبل علم الاحياء ؛ ولكنه عُني على وجه التخصيص بتبدل نظرات الانسان العقلية والاخلاقية ، هذا التبدل الذي يعتقد هاكسلي ان التطورات البيولوجية تؤذن به وتدل عليه . لقد سار التطور البيولوجي حتى الآن وفقاً لعملية الانتخاب الطبيعي العمياء . وقد حان الوقت ، كما يقول هاكسلي ، الذي اصبح فيه ممكناً اخضاع عملية التطور للتوجيه الانساني الواعي . ولا سبيل الى تحقيق هذه الامكانية الا اذا اضطلع الانسان بتبعاته الجديدة ؛ ان عليه منذ اليوم ان يقلع عن تقبّل القيم الموروثة عن الماضي من غير ما تفكير . عليه ان يدرك انه خالقُ قِيَمٍ ، وان هدفه الصحيح في الحياة ان يتعلم ان يحيا لا ان يسد رمقه ليس غير . وهذا يعني استشرافاً انشائياً لامكانيات المستقبل ، ويعني ايضاً ادراكنا ان الانسان يقترب من مرحلة لا يكون همه الرئيسي فيها مجرد اقامة الأود ، بل السعي في سبيل القيم الروحية .

ومع الايام اطلق هاكسلي تعبير « الانسانية العلمية » scientific humanism على تلك النظرة التي تقول بان الحياة الانسانية يمكن أن تقوم بثورة خيّرة من خلال انتشار التفكير العلمي ، والاكتشاف العلمية وخاصة في الحقل البيولوجي ، وادراك الانسان المتزايد لقدرته على ان يكون خالقَ قيمٍ واعياً . والحق

معنى « الانسانية العلمية » ، كما حددها هاكسلي ، معنى مركّب معقّد . فقد خشيَ هاكسلي ، شأن اخيه ألدوس ، خطر التقدم العلمي اذا لم يوافقه احترام شديد الحساسية للقيم الروحية . فقد تهكم ألدوس هاكسلي في كتابه « الكلأ اليابس المضحك » على « شيرووتر » العالم الذي انتهى به استغراقه في الابحاث العلمية الى اللامبالاة بجميع الخبرات الرفيعة تقريباً ، فليس في حياته متسعٌ للفن ، او للدين ، او للحب . كذلك يعتقد جوليان هاكسلي أن المبالغة في التخصص قد تقود - من ناحية - الى تطور علمي مغالىً فيه ، إلى اهتمام ضيّق الأفق بالطريقة العلمية والبحث العلمي ، وقد تقود - من ناحية ثانية - إلى تطور ديني مغالىً فيه ، الى سلوك يمجّد الخبرة العاطفية والصوفية والدينية ، ويزدري طرائق العلم وقيمَ العلم . والشيء الذي نحتاج اليه اليوم في رأي هاكسلي هو إقامة التوازن بين العلم والنزعة الانسانية . يجب ان ندرك اهمية القيم العلمية وغزو البحث العلمي لجميع الحقول التي يستطيع اخضاعها لسلطانه ، ولكن علينا أن ندرك في الوقت ذاته أن القيم الاخلاقية والجمالية تُحَسّ وتُفهَمُ عاطفياً ، وانه ما لم ينتظم العالم تحسّسٌ عميقٌ لهذه القيم فلن تطمئن قلوبنا الى ان المعرفة التي يزوّدنا بها العلم سوف تُصطنع في حكمة وتعقّل . ويعتقد هاكسلي أن للعداء الحديث بين العلم والدين شروراً ذات آثار بعيدة الأهمية . إنها تقسم النفس الانسانية ، في اعمق اعماقها ، إلى قسمين وتحول دون الافادة من قوى الروح المتحدة ، إفادة صحيحة قوية ، في حلّ المشكلات البشرية . ومن

اعظم الواجبات الملقــــاة على عاتق عصرنا ، في رأي هاكسلي ، القضاء على هذا العداء ، وتجبير هذا الانقسام في الروح البشرية ، والتوفيق بين الاستشراف العلمي والاستشراف الديني للحياة .

يقول هاكسلي عن نفسه إنه عقلاني rationalist ، ولكنه يهاجم في الوقت نفسه تلك الاشكال من النزعة العقلانية الحديثة التي تصدر عن عداء بعيد الجذور للدين. وعنده أن اطراح الدين كله بسبب من مناحي الضعف في الدين التقليدي أشبه ما يكون باطّراح الطفل مع ماء الاستحمام . ذلك أن هاكسلي يؤمن بأن الرجل الحديث في حاجة قصوى الى الدين ، وان كثيراً من الآفات الشخصية والاجتماعية التي نشكو منها راجعة الى انحطاط في الدين الحقيقي . وانما يفهم هاكسلي الدين بوصفه استشرافاً للحيـاة ضمن نطاق « حاسّة القدسية » ، وما لم يوحّد الانسان شخصيته بمساعدة هذا الشعور بقدسية بعض مظاهر التجربة فانه لن يوفق الى أن يبلغ ارفع مراتب الحياة واكملها. ويعتقد هاكسلي ان حاسة القدسية انما تستثار - عند الرجل الذي لم تفسد حساسيته للقيم - من طرق عدة : من طريق الطبيعة ومن طريق جمال الكون وغرابته واسراره ، ومن طريق الحب والبهجة والصداقـــة والاخلاص ، ومن طريق جمال الفن ، وحيوات الرجال العظام .

« ان كل من عرف اشعاع المعرفة الجديدة ، ونشوة الشعر او الموسيقى ، واخضاع النفس ، طواعية واختياراً ، لشيء اعظم ، والبهجة التي تورثهـا الصحة الجسدية الكاملة ، والارتياح الناشيء عن انجاز مهمة عسيرة ، يعلم ان هذه الخبرات ذات قيمة كبيرة ،

في ذاتها، بصرف النظر عما توقعه في نفس صاحبها من ارتياح يومي عاديّ . » وواضح ان الدين ، بالمعنى الذي حدّده هاكسلي ، ينسجم احسن الانسجام مع روح العلم ويعترف ضمناً بصحته واهميته .

وهاكسلي لا يؤمن بالله ، ولكنه يعتقد ـ بصرف النظر عن صحة الألوهية او الانسانية ـ ان القيمة العملية لهذه الاخيرة اعظم بكثير ، اذ تشجع الانسان على ان يعتمد على قواه الذاتية وعلى ان يدرك ، بخاصة ، الدور الذي يجب أن يقوم به الانسان بوصفه خالقاً للقيم . اما الايمان بوجود الله فيقود الانسان ـ في رأي هاكسلي ـ الى الاعتماد على التقليد والرواية والسلطة الدينية .

وفي محاضرته الشهيرة عن « العلم ، والدين ، والطبيعة البشرية » يقدم لنا هاكسلي تاريخاً موجزاً للدين ، ويشير الى انه كان ثمة دائماً قدسية شريرة وقدسية خيرة . وهو يظهر لنا ان الدين قد تطوّر ، خلال العصور ، من اشكال بدائية قديمة ، الى اشكال ارفع واصفى . وعنده ان قسماً كبيراً من الدين التقليدي هو في جوهره من ذلك الضرب البدائي غير المتطوّر ، واننا اليوم في امس الحاجة الى دين يكون أسمى تطوّراً . فالدين المتطوّر خليق بأن يسعى ، اليوم ، الى توحيد مختلف قوى العقل والروح بحيث يؤدي ذلك الى تطور الشخصية أغنى ما يكون التطور . انه خليقٌ بأن يشبع حاجات الانسان النفسية ويمنحه « حاسة الهدف » في الحياة ، وبأن يزيد الحب وينقص الخوف . انه خليق بأن يكون له هدف اجتماعي، وان ينظم العمل لتحسين حال الانسان.

وسترتفع قواعد هذا الدين على حاسة من احترام الحياة وإجلالها ، وايمان بأمكانيات التطور الانساني التي لا تكاد تعرف حداً. ولكنه سينهض كذلك على اساس من ادراك هـذه الحقيقة : وهي ان عملية التطور والارتقاء قد بلغت مرتبة صار الانسان قادراً فيها على التأثير الواعي في مجراها . وسيقدر احسن القدر الامكانيات الكبرى الجديدة التي فتحها العلم الحديث ، ولا يزال ، في وجه الجنس البشري .

والحق ان ايمان هاكسلي بامكانية السيطرة الواعية على سنة التطور والارتقاء قد حمـله على ان يعلق اهمية كبرى على العلم اليوجني eugenics او علم تحسين النسل . فمن بين مُثل الانسان العليا جميعاً يرى هاكسلي ان تحسين النوع الانساني هو اكثرها حكمة ، واعظمها شأناً ، وأبعدها أثراً . ومهما يكن من امر ، فقد انقطع هاكسلي عن ارتقاب نتائج باهرة من الاجراءات اليوجنية في المستقبل القريب ، وذلك بعد ان نضجت حكمته وازدادت معرفته البيولوجية . والواقع انه لم يحقّق حتى اليوم غـير نجاح متواضع في حقـل تطبيق البيولوجيا تطبيقاً يوجنياً اجتماعياً ، وأنـه لا بدّ من الحصول على معرفة بالموضوع أدقّ وأوفى ، قبل ان يصبح في الامكان التفكير بمشروعات كبيرة طامحة . أضف الى ذلك أن السياسات اليوجنية المتطرّفة المطبقة من قبل الحكومات في هـذه المرحلة من التطور الاجتماعي ، يجب ان يُنظر اليها في كثير من الحذر والريبـة ، كما تشهد الاجراءات التي اصطنعها النازيون في ألمانيـة . وفي كتابه

« فردانية الانسان» Uniqueness of Man يعرض هاكسلي عرضاً ماتعاً لأخطاء علماء تحسين النوع القدماء . ففي البدء كانت ثمة نزعة الى الاستخفاف بأهمية البيئة . فقد كان يُظن ، خطأ ، ان تمتع طلاب المدارس الثانوية ، على العموم ، بسن عقلية أعلى من تلك التي يتمتع بها لداتهم * من طلاب المدارس الابتدائية ، إنما يرجع برمته الى اسباب وراثية . ولكن علماء البيولوجيا يدركون اليوم ان علينا ، ونحن نضع البرامج لتحسين النوع ، ان نأخذ بعين الاعتبار البيئة فضلاً عن الجماعات التي تستهدفها البرامج ، بعد ان ظهر ان ثمرات الوراثة الواحدة تعطي نتائج تختلف باختلاف البيئة . وأياً ما كان فان ادراك هاكسلي لتعقد مشكلة تحسين النوع باكثر مما كان يحسب من قبل لم يُضعف من إيمانه بأمكانية تحسين الجنس البشري . والحق ان كل خطة يوجنية تقتضي ضمناً ، اتفاقاً على القيم الشخصية والاجتماعية ، ولكن هاكسلي يرى ان الاتفاق قائم الى حد كبير ، حول الصفات التي يحسن بالانسان الجديد التحلي بها ، من مثل الصحة ، والذكاء ، والظرف ، والشجاعة ، والقدرة على التزعم ، والتجرد عن الهوى ، وحول بعض البراعات الخاصة من مثل البراعة في الموسيقى ، والرياضيات ، والبحث العلمي . ولعلنا نصل ، مع الايام ، الى عهد تعم فيه مزاوجات صالحة من الصفات التي عددنا ، وتصبح شيئاً عادياً .

ولقد وُجه كثير من النقد الى المستوى العلمي للعلوم الاجتماعية .

---

* من ولدوا معهم في عام واحد .

وهاكسلي يدرك ، طبعاً ، ان هذه العلوم تعرض مشكلات ذات صعوبة خاصة بسبب من التعقد البالغ الذي تمتاز بـه المسائل التي تنطوي عليها ، وصعوبة القيـام بتجارب دقيقة تشمل حقلاً ضيقاً محدوداً . والواقع ان العالِم الاجتماعي يواجه دائمـاً مشكلة تنوّع العوامل التي تسبب نتيجةً ما، وهذا ينطوي على استعمال الطرائق التقنية الرياضيـــة الخاصة . ولكن اذا كانت مشكلات العلم الاجتماعي ذات مصاعب خاصة فليس من شك في ان الصبر عليهـا جديرٌ بأن يؤدي الى أروع النتائج واحسن المكافأة . وهاكسلي يعتقد ان العصر الذي نعيش فيـه يقتضينا روحاً من التفاؤل والجهد المتجدّد ، لا روحاً من التشاؤم والانهزامية .

ومن اعظم المنافع التي نُفيدها من دراسة العلوم الاجتماعية ما تشجع عليه من اتخاذ موقف جديد تجاه المشكلات الانسانيـة . ففي الماضي ، كانت معظم نظرات الانسـان الاجتماعيـة ، مهما عبر عنها تعبيراً عقائدياً دوغماتياً ، قائمة على اساس من الحقد وندرة المعلومات والانباء . وقادتنا السياسيون ورجـال الدولة اليوم نادراً ما يكونون علماء في الاجتماع بل نادراً ما يُظهرون القدرة على التفكير العلمي . فمن اكبر مهـام العلوم الاجتماعية ان تمكن المجتمع من انشاء اعضاء دماغية على غرار تلك التي انشأها الجهاز الجسماني لمواجهة الحالات المادية . ولقـد سبق لويلز ان عرض في بعض التفصيل لاعضاء هذا « الدماغ الاجتماعي » وصفتها في كتابه « دماغ العالم » . ومحصل ذلك ان الدماغ الطبيعي يمنـح الكائن الحي الذي أنشأه ، مرونة اكبر وسيطرة على البيئـــة اعظم .

فيتعين على الاعضاء الدماغية الخاصة بالمجتمعات ان تزيد، كذلك ، قدرة هذه المجتمعات على استقاء الانباء ، وعلى التنظيم ، واعداد الخطط ، والتناسب ، وتوجيه السياسات الاجتماعية في مرونة . وعلى علم الاجتماع الجديد ان يعلم ساستنا كيف يعدّون التنظيمات الضرورية لهذه الاغراض .

ان روح العالِم الاجتماعي لا روح السياسي هي التي توحي بشتى محاولات هاكسلي واعماله في سبيل حل مشكلات العصر . والحق ان هاكسلي تقدمي بالمعنى الافضل ، من غير ان يكون مجرد تابع للحركة اليسارية . ومديحه للمشرفين على مشروع وادي تنسي Tennessee ، الذي كتب عنه بحثاً ممتازاً ، إطراء لتجربة أجريت بروح « الانساني » العلمي ، لان الذين وضعوا تصاميم خزان وادي تنسي انما عنوا بالقيم الانسانية بقدر ما عنوا بالمشكلات التقنية التي انطوى عليها المشروع . وفي كتابه « الديموقراطية تسير » Democracy Marches يقرر هاكسلي اهمية المحافظة على الروح الديموقراطية والاساليب الديموقراطية اذا ما أردنا ان يظل العقل الانساني حراً في التأتي لمشكلاته بروح العلم . وهو يدرك اقوى الادراك خطر الروح التعصبي وما لمرونة العقل من شأن عظيم ، وينادي بان الحلول السياسية الصحيحة رهن باقامة التوازن بين روح الحرية والابداع ، من ناحية ، وروح النظام والتعاون من ناحية اخرى . وينظر نظرة اكبار الى روح الحرية الفعالة التي توجه ، على ما يبدو له ، المؤسسات البريطانية والاميركية ، والتي تتمثل في حيوية عدد كبير من الجمعيات

المتطوعة لخدمة الجماهير ، وفي نشوء النزعة الى رفض التقيـــد بالعقائد الدينية المتعارفة ، وظهور الروح الدينية المستقلة . ولكنه يعتقد ان بريطانية واميركة لا تدركان ، ادراكاً كافياً ، الحاجـة الماسة الى رسم الخطط وإعداد التصاميم .

وفي سنة ١٩٤٢ نشر هاكسلي كتابه الخالد : « التطور – نظرة تركيبية حديثة » ملخّصاً فيه تقـدم العلم البيولوجي في الثلاثين السنة ، او اكثر ، التي قضاها المؤلف في دراسة البيولوجيا وتعليمها والبحث فيها ؛ وإذ كانت هذه السنوات تمثـــل تقدماً واسعاً في هذا الحقل ، فان لكتاب هاكسلي هذا قيمة كبرى . وانما يظهر مدى ذلك التقدم في الازدياد الهائـــل في المعجمية vocabulary التقنية التي يصطنعها علماء البيولوجيا . والملاحظ أن مؤلف هاكسلي هذا ، بالرغم من وضوحه ، ليُوقعُ في نفس المرء أن المؤلفات العلمية في مختلف الحقول تكاد تصبح شيئاً لا قِبلَ للقاريء العاديّ بفهمه .

إن روح العلم الهادئة غير العاطفية لتهيمن على كتاب هاكسلي . وجميع استنتاجاته مبنية على حقائق مسلّم بهـــا ، او معروضة كمقترحات ليس غير . وقد كبح المؤلف في هذا الكتاب جماح الحدس الفلسفي لغرابته عن المشكلات التي يعالجها .

وتعليل هاكسلي للحقائق البيولوجية يقوده الى القول بانه ليس ثمة دليلٌ على ان لعملية النشوء والارتقاء هدفـاً معيناً . إن ما يبدو باديء الرأي هدفاً ليس إلا مظهراً خادعاً ، وهو كسقوط الحجارة على الارض وحركة المدّ والجزر النظامية لا يعدو ان

يكون نتيجة القوى العمياء . وهاكسلي لا يجد اي دليل على أن ثمة حافزاً فطرياً او « قوة حياة » توجه الكائنات الحية نحو التغير التطوري ، كما لا يجد أن ثمة غاية خيرة تساعد الانسان والحياة البهيمية وتوجهها . وهو ، شأنَ دارون، يضفي اهمية كبيرة على الانتخاب الطبيعي ، ويشير الى أن الكائنات الحية التي لا تتعرض لانتخاب قاسٍ تنزع الى الانحطاط . ولكن الانتخاب نفسه كثيراً ما لا يؤدي إلاّ إلى انتاج « نموذج التخصص» الذي يُعتبر غاية تطورية ميتة، والذي يُنقص قدرة الكائن الحيّ على تحقيق التكيف عندما تتغيّر احوال البيئة وشروطها .

إن الانسانَ لفريدٌ من حيث أنه يملك وحده القدرةَ على تحقيق تقدم تطوري او ارتقائي أبعد ؛ والتقدم الذي حققه حتى الآن فريدٌ في طبيعته ايضاً ، باعتباره قائماً ، في الدرجة الأولى ، على نمو الذكاء ، والحساسية ، والمعرفة ، وعلى مرونة متزايدة ، وتكيّفٍ ، وسيطرة على البيئة . والتقدم ذو طبيعة تجعله قادراً على الامتداد الاضافي ، في حين أن تطبيق المبادىء اليوجنية ( الخاصة بتحسين النوع ) جديرٌ بأن يُيسّر تحقيق هذا الامتداد الاضافي . صحيح انه ليس ثمة حجة بيولوجية مقنعة على ان التقدم سيتمّ بالضرورة . ولكننا نعرف على كل حال افراداً يتمتعون بقدر من الذكاء خارق للمألوف ، او بتبصّرٍ كتبصر الانبياء ، او بقدرة فائقة على التجرد عن الأهواء والسيطرة على الدوافع الداخلية ، او بموهبة التخاطر telepathy ، او بنموّ بالغ لقوة عقلية خاصة . ولعلّ من حقنا

ان نعتبر ان هؤلاء الرجال يمثلون ذلك التقدم الذي قد يحققه النوع البشري كله عاجلاً او آجلاً . وقد تنطوي القوى الجديدة على فقدان الصفات التي كانت ذات شأن في المراحل التطورية الارتقائية الاولى من مثل النزعة العدوانية وغريزة القنص . وهنا يقول هاكسلي : « ليس يكفي ان يموت القرد والنمر فحسب ، بل يجب ان يموت الحمار والحيوان اللبون mammal ايضاً ، لان البلاهة والانغماس في الامور الجنسية يعطلان التقدم » .

وقد رأينا ان هاكسلي لا يجد دليلاً على ان ثمة روحاً خيرة تعمل من وراء التطور . فنشوء القديس من اقدم اشكال الحياة واقلها تطوراً هو ، عند هاكسلي ، ثمرة عمل قامت به قوى عمياء . وهكذا يجد هاكسلي الكون أعمى غيرَ عقلاني ، وحشياً لا خلاق له ؛ واسمى واجبات الانسان وادعاها الى الفخر ان يحارب ضد وحشية الكون ولا عقلانيته . إن على الانسان ؛ وهو الكائن العقلاني او نصف العقلاني الوحيد في كون غير عقلاني ، ان يعتز بفردانيته . وقد وسّع هاكسلي فكرته هذه في رسالته الشهيرة ، « فردانية الانسان » The Uniqueness of Man . وقد سبق لجده توماس هنري هاكسلي ان اصدر عن تفكير مماثل في محاضرته « العلم والاخلاق » . وأنا شخصياً أرى ان النظرية القائلة بأن عقلانية الانسان مظهر اتفاقي accidental لكون غير عقلاني نظرية صعبة التصديق . ومع ذلك ففي استطاعتنا ان نُقر بأن نظرة هاكسلي هذه تلزم لزوماً طبيعياً عن « انسانيته » ، و « لا أدْريته » . فهاكسلي يرى الاعتقاد بأن نظام الكون

الشديد التعقيد قد حدث مصادفةً اقربُ الى العقل من الاعتقاد بأنه من صنع خالق مبدع . واذن ، فأذا لم يكن وراء الكون هدف خيّر فعندئذ يُدفع المرء الى هذا الاستنتاج البائس: ان الفرص المتاحة لبلوغ الانسان مرتبةً رفيعة من الكمال تتوقف على جرَعات العقل الصغيرة ، نسبياً ، التي يستطيع الانسان ان يقدمها الى الكون الواسع العريض .

*

وليس من شك في ان جوليان هاكسلي رجل تستحق حياته وآثاره وشخصيته كل تقدير واعجاب . فهو عالم بيولوجي كبير لا تعرف شخصيته ضيق الافق المميز لأرباب الاختصاص ؛ وهو من العاملين في خدمة القضايا الاجتماعية والسياسية من غير أن يشوب عمله شيء من نقائص السياسيين النظريين . وهو يمتاز بتعدّد جوانب النشاط ، الى مقدرة بارعة ، ونزاهة واخلاص بالغين ، وصفاء عجيب في الفكر ، وحب حميم للانسانية . أما هاكسلي المفكر فمعني في الدرجة الاولى بالعمل التركيبي synthesis ، ذلك العمل الذي يقوم على تنسيق مختلف فروع المعرفة والخبرة وتوحيدها ، والذي يعتدّه حكماء الرجال مهمة عصرنا الكبرى . ويجب ان نترك للزمان الحكم على بعض آرائه الخاصة . ولكن الاجيال القادمة لا بد ستؤيد الرأي السائد اليوم ، والقائل بأن الهدف الرئيسي الذي يعمل في سبيله ، والحماسة والنشاط اللذين تتميز بها جهوده ، خليقة بأعظم القدر واسمى الاعجاب .

# ٦ . ألدوس هاكسلي



ولد الدوس هاكسلي في ٢٦ تموز سنة ١٨٩٤ ، وتلقى دروسه في « إيتون » وفي كلية باليول في اكسفورد . وكانت سنواته في الجامعة هي سنوات الحرب العالمية الاولى، وقد بدأ حياته الادبية في عهد الكلبية * cynicism وخيبة الامل الذي عقبها . والواقع انه عاصر « ت. س. ايليوت » T. S. Eliot مؤلف « الارض اليقفار » Waste Land ، وتمتاز آثاره الاولى ، كما تمتاز آثار ايليوت هذا ، بسخريتها من الجري الطياش وراء اللذة القلقة ، الذي وسم حياة الشبان من ابناء جيله، هذا الجيل الذي فقد الايمان بالدين وبالتقدم جميعاً. وقد لاحظ الدوس هاكسلي في نفسه بعض خصائص جيله . فنص على انه يحس نوعاً من الحب للحياة الخالية من المعنى ، لحياة الحس واللذة ، حتى وهو يهزأ بها ويسخر منها .

والحق ان السنوات الثلاث التي عرف فيها هاكسلي العمى الجزئي ، وهو طفل صغير ، كانت ذات اثر بعيد في شخصيته فاذا هو يتخذ من الحياة موقفاً انعزالياً لم يزايله طابعه منذ ذلك الحين . وروايته الاولى « الكروم الاصفر » Crome Yellow ، وهي دراسة لنفسية « هملت » شاب، تظهر التعاسة والضرر اللذين يعانيهما شخص ليس عنده من الثقة بالنفس ما يساعده على ان يختلط برفاقه اختلاطاً هيناً سعيداً ، فهو يستغرق في ذاته استغراقاً يحول بينه وبين العمل ؛ وليس « دينس » هذا ، او هملت الصغير ، غير صورة منتزعة من حياة الدوس نفسه . ولا جدال في ان « الكروم الاصفر » رائعة قصصية من الطراز الاول . وواضح ان ما فيها

* احتقار الحياة وعدم الايمان بأن الانسان ذو طبيعة خيرة. ( المعرب)

من روعة وظرف وسخرية مستوحى الى حـــد بعيد من أناتول فرانس الذي كان الدوس هاكسلي معجباً به غاية الاعجاب .

وعني هاكسلي ، في مطلع حياته الادبية ، اكثر ما عني بالادب والشعر . وقصائـــده تتكشف عن اسلوب مترف الصقل وعن حس رفيع لقيمة الكلمات الجمالية ، ولكنها تنزع الى ان تكون ابرع مما يجب ، اذا جاز التعبير ، زاخرة بالصنعـــة والتكلف . والحق انه وقـــع تحت تأثير بودلير ومدرسته ، وان عدداً من قصائده لتنم عن مقدار تأثره هذا . فقد شاقته « عبادة الشيطان » Satanism عند بودلير وفرلين وغيرهما ممن احبوا الشر لانه شر ، وكانوا اعجز من ان يقاوموا اهواءهم وشهواتهم عندما تقع اعينهم عليه . وقد رسم هاكسلي في رواياته الاولى صوراً حية لعبـــاد الشيطان هؤلاء ، فأتحفنـــا بشخصية كولمان في « الكلأ اليابس المضحك » وشخصيـــة شيليفر في « هذه الاوراق العاقرة » These Barren Leaves ، وشخصية سباندرل في Point Counter-point . فقد اقترف سباندرل هـــذا جريمة وحشية بسبب من انجذابه الى الشر ، ومع ذلك كانت تعمر نفسه ، في الوقت ذاته ، انبل العواطف واسماها . ولا عجب في هذا ، فقـد كان هاكسلي مولعاً بالكشف عن المفارقات الساخرة في الطبيعـــة البشرية . فبعد ان يقترف سباندرل جريمته بفترة وجيزة اذا به يحاول اقناع « رامبيون » بأن الله موجود ، من طريق إسماعه مقطعاً نبيلاً من احدى روائع بيتهوفن المشهورة . امـا مقالة هاكسلي عن بودلير في كتابه « اعمل ما تريد » Do What You Will فليس من شك

في انها تحليل سيكولوجي رائع لـ « عبادة الشيطان » .

وكان جيل الكتّاب الذي تصرّم قبل هاكسلي ، من مثل غالزورثي Galsworthy وراسّل ، وشو ، وويلز ، معنياً في المحل الاول بالنقد الاجتماعي واقامة المجتمع على أسس جديدة . ولن تخطىء في مؤلفاتهم عبق الايمان بعالم اشتراكي منظم على قواعد عقلانية . فلم يكن من هاكسلي وكتاب جيله الا ان ثاروا على هذه النزعة . والواقع ان اهتمام هاكسلي في عهده الاول كان منصباً على مشكلات حياته الشخصية ، بما تحفل به من عواطف خاصة ومصاعب فكرية . ذلك بانه كان واعياً اشد الوعي نواحي ضعفه وقصوره . فقد أحس ان طبيعته انحرفت في اتجاه التوكيد البالغ على النشاط العقلي ، وان ذلك قد جعل من العسير عليه ان يستمتع اتم الاستمتاع بالخبرات التي يجدها الآخرون مدعاة الى الارتياح . وتاق الى الحياة المشبعة ، الى الفرار من مواطن الضعف في طبيعته الخاصة . وهكذا نرى في غامبريل Gumbril بطل « الكلأ اليابس المضحك » رجلاً يسعى وراء التجربة الغزيرة ، ويتطلع بخاصة الى التعبير الكامل عن الحياة العاطفية . ليس هذا فحسب . بل ان امعان هاكسلي التفكير في مشكلة التجربة الخصبة المتنوعة اوحى اليه بأول تعبير نظامي عن فلسفته في كتابه « اعمل ما تريد » . ففي هذا المؤلف يُطري هاكسلي تعدّد الآلهة عند الاغريق القدماء الذين عرَفوا — بعبادتهم لآلهة مختلفين يرمز كل منهم الى مظهر من مظاهر الحياة الانسانية — كيف يُفسحون للشهوات والرغائب

الانسانية الاساسية في مجال التعبير الكامـــل . وهنا يستشهد هاكسلي بملاحظة بوسينيوس * Pausanius « جميع الآلهة يجب ان تحاط بهالة من التقديس والاعظام » ، ويُطري طريقة الحياة الاغريقية في الفقرة المشهورة التالية : « إن للانسان عقلاً ، إذن ، دعوه يفكر ؛ وحواسّ تستمتع وتلذّ ، فليلتمس لذاته الحسية ؛ وان له غرائز ، وهي هناك لكي تُشبَع ؛ وشهوات ، ومن خير الانسان أن يستسلم لسلطانها بين الفينة والفينة . كذلك للانسان خيـــال ، وحسّ للجمال ، وحاسّة جزع وخوف : فدعوه يخلق ويبتدع ، دعوه يحيط نفسه بكل ما هو جميل ، دعوه يتعبّـــد ويصلي . إن الانسان لشديد الاختلاف والتباين ، وانه لمتقلب ، يناقض نفسه بنفسه . وقد تقبّل الاغريق هذه الحقيقة ، فعاشوا عيشاً مختلفاً متبايناً ، وعاشوا عيشاً متقلباً متناقضاً . ولقـــد خلعت وثنيتهم على هذا التقبل الواقعي للحياة ، معنى الاباحـــة الالهية المقدسة » .

وأروع روايات هاكسلي الاولى ، Point Counterpoint ليست غير عظة تبشر بما ذهب اليه في كتابه « إعمل ما تريد » . ففي هذه القصة يسخر هاكسلي من عدد من الشخصيات الـــتي لا تعبّر الا عن جانب واحد من طبيعتها. فـ « بدليك » Bidlake متعبد للذة؛ وفيليب كوارلز Quarles مستغرق، شأنَ هاكسلي نفسه ، في قضايا الفكر ،و« وبلنج » Webling رجل عمل ونشاط

* جغرافي ومؤرخ يوناني من أهل القرن الثاني الميـــلاد ، وهو صاحب كتاب « صفة بلاد اليونان » .   [ المعرب ]

لم يتعلم قط الروية والتفكير ؛ و« بورلاب » Burlap متفان في الروحانيات والمثل العليا. أما « رامبيون » Rampion فيصدر عن رأي هاكسلي الخاص المبشّر بالحياة التامة التي توائم ما بين مظاهر حياة الانسان جميعها. يقول هاكسلي على لسان رامبيون: « ليست الحضارة غير انسجام واكتمال فهنـــاك العقل والشعور والغريزة وحيـــاة الجسد ، وقد سعى بلايك * Blake الى ان يعتنقها كلها ويوائم ما بينها . وبكلمة أخرى : إن البربرية أمست اليوم غير متوازنة الجوانب ، ففي ميسورك أن تكون بربريّ الفكر كما تكون بربري الجسد ، وأن تكون بربري الروح والشعور كما تكون بربري الحسّ واللذة . لقد جعلتنا المسيحية برابرة روح، وها هو العلم يجعلنا اليوم برابرة فكر : ومن هنا كان بلايك Blake آخر رجل متمدن عاش على ظهر هذا الكوكب ».

والحق ان شخصية « رامبيون » مستوحاةٌ من د . ه. لورانس D. H. Lawrence . فقد كان هاكسلي معجباً بلورانس اعجاباً شديداً لم يستشعر مثله، في ذلك الحين، نحو أي من معاصريه. كتب مرة عن لورانس يقول : « اتصلت بكثير من الرجال البارزين فكنت أشعر ، على أية حال ، انني انتسب الى « النوع » نفسه الذي ينتسبون اليه . ولكن في هذا الرجل ** شيئاً مختلفاً، شيئاً

---

* هو وليم بلايك الرسام والشاعر الانكليزي المشهور ( ١٧٥٧-١٨٢٧ ) ( المعرب )

** يعني د. ه. لورانس ، ولعل من الخير هنا التنبيه الى ان لورانس هذا هو غير لورانس الشهير في تاريخ العرب الحديث . ( المعرب )

أرفع مما عند الآخرين من حيث الصنف لا من حيث الدرجة » .
وانما كان انجذاب هاكسلي الى لورانس انجذابَ النقائض . فقد كان لورانس يتميز بالعزم،والصراحة وسرعـــة الانفعال وبتأثر حاد رقيق بالانطباعات الحسية، ولم يكن عند هاكسلي شيء منها. وواضح أن الكلمة التي قدّم بها هاكسلي لمجموعة رسائل لورانس تنضح بالتقدير النبيل لعبقريته .

وفي سنة ١٩٣٢ نشر هاكسلي كتابه اللاذع « العالم الطريف »* Brave New World . وهو لا يعدو ان يكون سخرية بالمدن الفاضلة utopias . واذا كان « برديف » Berdyaev قال مرة ان آفة المدن الفاضلة انها امست اليوم ممكنة التحقيق وانها مريعة حين يتم تحقيقها ، فالواقع ان « العالم الطريف » مدينـــة فاضلة ( او طوبى ) محققة ، وانها لحافلة بما يوقع الذعر في النفوس . فقد انتهى العـــالم الى الوحدة ، وها هو يُنظم ويُساس بأشراف « مصطفى موند » Mustapha Mond . وفورد ( الذي يحرّف احيانا الى فرويد Freud كما يقول مواطنو العـالم الطريف ) هو ملهم هذا العالم الجديد القائم على اساسين توأمين : الانتاج عـلى نطاق واسع ، والحرية الجنسية ( التناسلية ) . لقد ارتفع العـلم بالصحة الانسانية الى حد الكمال ؛ ولقد جعل علم النفس ، المبنيّ على بافلوف ** Pavlov ، تكيف كل إنسان مع مجتمعة أمراً

---

* نقل هـذا الكتاب إلى العربية الاستاذ محمود محمود ، ونشرتـه دار الكاتب المصري بالقاهرة سنة ١٩٤٧ ( المعرب )

** سيكولوجي روسي شهير أجرى تجارب كثيرة على الكلاب في موضوع « الاعمال المنعكسة المقيدة » . ( المعرب )

ميسوراً ؛ إن ساعات العمل لمعتدلة ، وإن المباهج لمتنوعة غزيرة.
وكل نزعة الى الانقباض والغم يمكن ان تداوى بالعقار الجديد
المدعو « سوما » Soma . وليس من حاجة ، في مثل هذا العالم ،
إلى التثقيف العقلي الشامل، بل إنه ليثير فيه كثيراً من الإستياء.
ومن هذا لم يكن عجيباً ان لا تشجع الدراسات والبحوث . ليس
هذا فحسب ، بل ان عملية « الاشتراط » السيكولوجي
conditioning لتجعل عمال « العالم الطريف » يستشعرون كرها
شديداً للكتب ، وبغضاً للطبيعة يساعدهم على الاستمتاع بحياة
المدينة . وتعنى القصة بأثر « العالم الطريف » في نفس «المتوحش»
الذي كان قد أعجب اشد الاعجاب بلغة شكسبير وفكره بعد
أن وقع على نسخة من مؤلفاته في منطقة مفردة للمتوحشين .
فالحق أنه لم يجد في هذا العالم الصحي السعيد المنظم تنظيماً كاملاً
ما يشجعه على الانضواء تحت لوائه ونفضِ اليد من الشعر ،
والدين ، بل ومن الشرّ والخطر !

وواضح ان القيم التي تحتل عند هاكسلي المقام الارفع ، هي
تلك القيم التي أبدعتها الشخصية المتطورة ، قِيم الفن ، والعلم ،
والشعر، والدين. وقد يرافق السعيَ في سبيل هذه القيم تعاسة ما،
ولكن سعادة الحيوان القانع هي على مستوى أدنى بكثير ، ولا
محل لمقارنتها بالألم ، والنشوة الفكرية التي ترافقه ، عند العقل
المتطور. وبعدّ « العالم الطريف » اول كتاب ذي شأن يديره
هاكسلي على موضوع سياسي . ومن الجلي انه مستوحى من
عدائه للانظمة الدكتاتورية الجديدة ، وخوفه من ان يلقى الفن

والشعر والدين معاملة خشنة في ظل المجتمعات المنظمة حديثا . وقد اثبتت الايام ان مخاوفة هذه كانت في محلها .

و « العالم الطريف » آخر روايات هاكسلي الناضحة بتلك الفكاهة المشرقة الجامحة الخبيثة التي كانت من ابرز مزايا كتبه الاولى. وبصدور كتابه « اعمى في غزة » سنة ١٩٣٦ ، غلب على آثاره طابعٌ اعمق واحفل بالجد . ومن يدري ؟ فلعله ادرك ان آثاره الساخرة الاولى تنطوي على شيء غير ذي قيمة ، او لعل حالته المزاجية الجديدة صرفته عن استغلال موهبته في الفكاهة اللاذعة الى اقصى حدود الاستغلال .

والواقع ان الفترة التي تقضت بين نشر « العالم الطريف » ونشر « اعمى في غزة » لتمثل ردة او انقلاباً في تفكير هاكسلي؛ لقد تبدل رأيه في فلسفته الاولى،فلسفة « الاكتمال »او « الافراط المتوازن » .ذلك بأنه كان يعتبرها فلسفة تعبير عن الذات ، فاذا به يراها اليوم فلسفة انهماك في الذات . صحيح انه عمل في ايامه الاولى على تكوين عقله ووقف نفسه على الفلسفة والعلم والفن ، ولكنه انما فعل ذلك لان « حياة الدراسة المتصلة » كانت بالنسبة اليه لهواً ولعباً . انه لم يواجه قط ، مشكلة الافادة الصحيحة من شخصيته ، ولم يحاول ان يقيم علاقة صحيحة بينه وبين أقرانه . لقد انتهى هاكسلي الى الايمان بأن الحياة الصالحة تقتضي المرء ان ينكر ذاته ، لا ان يكتفي بالتعبير عنها . وما دام المرء عاجزاً عن التحرر من سلطان شهواته ورغباته فمن المتعذر عليه ان يقرر موطن واجبه الاسمى ومسؤوليته العظمى . وفي كتابه « الغايات

والوسائل » Ends and Means الذي يجلو تعاليم هاكسلي الكهل ، كما جلا كتاب « اعمل مـا تريد » تعاليم هاكسلي الشاب ، يقول ألدوس ان مؤسسي جميع الديانات لينهضون دليلاً على صحة الرأي القائل بأن انعتاق المرء من رغباته الانسانية شرط لذلك الاتصال بحقيقة اسمى واعمق ، حقيقـــة مقرها في القلب البشري ، وهي وحدها القادرة على ان تخلق الأنسان الامثل .

وفي « اعمى في غزة » يمر « انطوني بيفس » بالانقلاب الفكري عينه الذي مر به هاكسلي. واذا كان بيفس مديناً بيقظته الروحية لـ « ميلر » Miller ، فان الفضل في اتجـاه هاكسلي الجديد يعود الى جيرالد هيرد Gerald Heard وماثياس الكسندر .

وبتأثير ميلر يصبح بيفس من دعاة السلام . وفي « الغايات والوسائل » يبسط لنا هاكسلي مذهبه السلمي الجديد . ولقد سبق له ان عبر في « العالم الطريف » عن ضعف ثقته في المدن الفاضلة الاشتراكية ، وها هو ذا يعبر في « الغايات والوسائل » عن عدم ايمانه بجميع الوسائل السياسية الخالصة لحل المعضلات الانسانية . ان هاكسلي يؤمن اليوم بأن العلاج الاوحد للمعضلات الانسانية لا يعدو واحداً من أمرين : انقـلاب اخلاقي عميق الجذور ، او ثورة نفسانية عارمة .

وعندما كتب هاكسلي « الغايات والوسائل » كان العـلاج السياسي لمشكلة الحرب يقول بضرورة اصطنـاع العنف ، او التهديد باصطناع العنف ، ضد كل دولة تسوّل لها نفسها العدوان . وقد شجب هاكسلي هذه الطريقة ذاهبـاً الى انها لم توفق ، ولن

توفق ، الى القضاء على اسباب الحرب الكامنة في نزعة الانسان العدوانية وفي نظراته المغلوطة في الحيــاة . ويرى هاكسلي ان اولئك الذين يصطنعون العنف لسحق العنف خليقون بان يُفسد نفوسهم هذا الاصطناع فيتملكهم حب القوة وغمراتها . ليس هذا فحسب ، بل ان العنف يستثير العنف ، وكل حرب تحمل في ذاتها جرثومة حرب جديدة . واذن فيتعين علينا ان نبحث عن وسيلة لكسر حلقة العنف المفرغة هذه . وانما يجب ان يتم هـذا برفض اصطناع العنف حتى في مقام الدفاع عن النفس ، والرضا بتحمل جميع الشرور التي قد تنتج عن هذا الموقف ، في سبيل الخـــير الاعظم الذي لا بد سنجنيه ، آخر الامر ، بفضل رباطة الجـأش وضبط الاعصاب .

ومهما يكن من أمر فاللاعنف يجب ان لا يكون مجرد احجام عن استعمال القوة ، انه يجب ان يكون شيئاً ايجابياً ، شيئاً يقوم على اغداق المحبة على الآخرين . وقـد قال « انطوني بيفس » لـ « هلن » Helen في « اعمى في غزة » ان التمكن من فن محبـــة الناس هو الخطوة الاولى في سبيل حل مشكلة العالم . « فلنجعل المحبة والرأفة ماردين لا يتطرق الى نفسها التعب ، فهما يذلــلان المصاعب جميعاً ، ويتغلبان على الكسل الداخـــلي ، والكره والاحتقار العقلي ... »

وعندما اندلعت نار الحرب العالمية الثانيــة أحس هاكسلي ، على الرغم من تمسكه بآرائه السلمية ، ان هذه الآراء لن تلقى غير آذان صماء . فانقلب مع صديقه ، جيرالد هيرد ، الى كاليفورنيا

حيث اجتمع حوله عدد من المريدين المؤمنين بدعوته الى السلام.
والواقع ان نزعته السلمية مالت به الى الانهزامية السياسية ، اذ لم يكن قادراً على الايمان بان السياسات المتبعة يمكن ان تؤدي الى خير ما ، ومع ذلك فليس ثمة ما يوقع في نفسه الامل بان طرائق افضل سوف تُنتهج. اضف الى ذلك انه يعتقد بان الثورة السياسية لا تحمل من امكانية الخير الا بمقدار ما تحمل الحرب ، دفاعيـــة كانت او هجومية . وانما تبدو انهزامية هاكسلي اوضح ما تبدو في كتابه « بعد اصياف عـــدة » After Many a Summer على لسان « بروبتر » حيث يقول معبراً عن رغبتـــه في مساعدة الناس الغارقين في البؤس : « يجب إن تعمـــل شيئاً من اجلهم . ومع ذلك فهناك احوال تعجز فيها عن القيام بأيما عمل ناجع . فليس في مقدورك ان تساعـد امرءاً يأبى ان يتعاون معك على القيام بالعمل الضروري ، او لا يقدر على هـذا التعاون برغم رغبته فيه . ان عليك ، مثلاً ، ان تمد يد المساعدة الى قوم تتخطف الملاريا ارواحهم . حتى اذا انصرفتَ الى اداء هـذا الواجب عملياً وجدت انك عاجز عن خدمتهم اذا مـا رفضوا ان يسلحوا نوافذهم بستائر الشريط المتشابك ، واذا ما اصروا عـلى ان يتنزهوا قرب المياه الراكدة ، عند مُنبلج الصباح . والشيء نفسه صحيح في ما يتصل بأدواء السياسة . ان عليك ان تساعـد الناس اذا جابهتهم حرب او دمار او عبودية . اجل ان عليك ان تساعدهم . ولكنك لن تستطيع الى ذلـك سبيلاً اذا ما واصلوا السير في المسالك التي أودت بهم الى البلاء . ولنضرب على ذلـك

مثلاً : انك لن تستطيع ان تقي الناس ويلات الحرب اذا أبوا التنازل عن مباهج القومية . ولن تستطيع انقاذهم من الازمات الاقتصادية اذا ظلوا يفكرون بلغة المال وينظرون اليه نظرتهم الى الخير الاسمى . انك لن تستطيع القضاء على الثورة والعبودية ما داموا يعتبرون الرقي مرادفاً للمغالاة في المركزية ، والازدهار غلواً في الانتاج على نطاق واسع . انك لن تستطيع انقاذهم من الخبل الاجماعي او الانتحار اذا اصروا على تقديس مثل عليا لا تعدو ان تكون امتداداً لشخصياتهم ، وبكلمة ثانية ، اذا ما أصروا على عبادة انفسهم بدلاً من عبادة الله . ولعل في هذاالقدر من الجمل الشرطية كفاية . فلننظر الآن في الوضع الراهن على ضوء الحقائق الواقعية . وحسبنا هنا الاشارة الى هذه الحقائق : ان الناس في كل بلد متمدن مهددون اليوم بخطر عظيم ؛ انهم جميعاً يرغبون أشد الرغبة في النجاة من البلاء الذي يوشك ان يحيط بهم ؛ والكثرة المطلقة منهم يرفضون ان يغيروا عاداتهم في التفكير والشعور والعمل ، هذه العادات المسؤولة مباشرة عن حالتهم الحاضرة . وبكلمة ثانية ، ليس في الامكان مساعدتهم لانهم غير مستعدين للتعاون مع اي امرىء يتقدم لمساعدتهم على اساس من خطة عقلانية واقعية . »

اما كتابه « بعد أصياف عدة » فقصة جهد موفق بسبيل اكتشاف وسيلة لاطالة عمر الانسان . وخلاصتها ان عالماً معاصراً من الباحثين في هذا الميدان ينتهي الى ان المشكلة قد حلت على يد نبيل من اهل القرن الثامن عشر لا يزال حياً الى الآن؛ وقد عثر

عليه اخيراً في موضع عزلته تحت الارض ، فاذا هو في حال من الانحطاط الكريه لا تصدّق. وهكذا يرجع هاكسلي الى ما بسطه في « العالم الطريف » من آراء ، مشيراً الى ما يتهدد الجنس البشري من خطر الاكتشاف العلمي والخوف من ان يقود الانسانية الى الانحطاط بدلاً من ان يعمل على رفعها مقاماً علياً . »

وفي سنة ١٩٤١ نشر هاكسلي كتاباً دعاه « السمو الأشيب » وهو دراسة بارعة للعلاقة بين الدين والسياسة . فقد كان فراير جوزف ، مستشار ريشيليو ، رجلا من رجال الدين والتصوف المتزمتين . وكان أقصى أمانيه ان ينشر لواء الكنيسة المسيحية ويوطد نفوذها ، ساعياً الى ذلك من طريق الاستيلاء على السلطة السياسية . وهنا يرينا هاكسلي كيف حاول فراير أن يحقق غاياته « الخيّرة » بأحط الطرق ، من مثل التجسس والاضطهاد والتعذيب والتنكيل بالضحايا واصطناع الحيل الشرعية والسياسية على اختلاف أنواعها . وإنما يقصد المؤلف من وراء هذا كله الى هذا المغزى اللطيف : وهو ان الغايات الدينية الحق لا يمكن أن تُبلغَ من طريق السلطة السياسية ووسائلها . ان روح الدين الحق يجب ان تُنشر من طريق نفوذ الصالحين المخلّصين من رجال الدين الذين يأبون اصطناع الوسائل السياسية تحقيقاً لأهدافهم .

وأحدث روايات هاكسلي « على الزمان ان ينقطع عن المسير » ليست غير توكيد للتعاليم التي نادى بها منذ أصدر « أعمى في غزة » و « الغايات والوسائل » . فهو ينصّ جازماً على أنه لا سبيل الى نجاة الانسان من مشكلاته ومتاعبه غير السبيل التي

يتنكبها الناس إلا قليلًا منهم : العودة الى الله . فقــد هزيء « جون بارناك » بفكرة الاصلاح الاجتماعي من طريق العودة الى الله ونشرها بطريقة « العدوى الخيّرة »، فسلّم « سيباستيان » معه بان الامل في مثل هذا التبدّل الديني يبدو اليوم ضعيفـاً جداً ، بنسبة واحد الى مليون ، ولكن هذا الامل الضعيف نفسه أفضل من فقدان الامل بالكلية ، لان الاعتقاد بأمكان الخلاص من طريق الوسائل السياسية فاسدٌ ، بلا خلاف .

*

وجماع القول ان هاكسلي يُعتبر أحدالعقول اللامعة الـتي تجمع إلى الثقافة الرحبة نبوغاً يعزّ نظيره في عصرنا . وانما تنقسم حياته الفكرية الى مرحلتـين واضحتي المعالم . ففي الاولى كان نشاطه أدبياً جمالياً في معظمه ، فنظم جمهرة صالحـة من القصائد التي تنمّ عن حساسية بالغـة وذوق مثقف مقترنـين بذكاء علميّ الطابع . ولقد حاول أن يصطنع في رواياته الاولى ، كما يقول ، « مركباً كيمائياً من جميع الاساليب ، مازجاً ما بين الخفـة والمأساة والمرح والفكاهة والخيال والواقعيـة والسخرية والعاطفـة جميعاً » . كما حاول ان يرى الحياة بعـين الدين ، وعين العلم ، وعين الشعر ، وعين الاقتصاد ، وعين الشهوات الحسية في آنٍ معاً . وكان موضوعه الرئيسي في هـذه المرحلة مشكلة انقسام الشخصية ، والمظاهر المتعارضة والمتغايرة للطبيعة البشرية . اما اسلوبه فكان يهدف الى الظرف والدعابـة وابراز المفارقات الساخـرة . وليس من شك في ان رقـة طبعه وشدة حساسيته

ونزعته التشاؤمية قد ساعدته على ان ينفذ نفاذا سريعاً الى كل مظهر من مظاهر التجربة ، ويصوّره تصويراً نقدياً بارعاً .

أما المرحلة الثانية من حياة هاكسلي الفكرية فقد قرّرهـا اكتشافه للدين . ففي « الغايات والوسائل » يشير هاكسلي الى ندرة الكتب – حتى تلك المعدودة بين روائع الادب – التي كانت ثمرة شخصيات كاملة النماء ، لرجال متحررين من سلطان الشهوة والتفكير المبني على المصالح الشخصية . وهو يعتبر آثاره الاولى نفسها تعبيراً عن ايثاره لعالم خال من المعنى ايثاراً مردّه الى عدم يقظته الاخلاقية . اما نظرته المتأخرة التي كان لها اعظم الاثر في اختياره لموضوعاته وطرق معالجتها فمنبثقة عن صوفيته التي انتهى اليها حديثاً . انه ينادي اليوم بأن في استطاعة الانسان ان يتحرر ، بواسطة التأمل ، من عبودية الرغبة ، ويعرفَ اللهَ في ذات نفسه « كقوة حرّة ، وعملٍ خالص . » وهو يعتقد بأنه يتعين على من عرف اللهَ مرةً ان يعمل في سبيل الكمال ويسعى للمثل العليا . ومثل هذا الرجل ينتهي الى ان يدرك ان الانانية الانسانية سجن ، وان معظم « المثل » الانسانية لا تعدو أن تكون مجرد مظاهر لهذه الانانية . ومن هنا يصبح همهُ الاكبر ان تملأ فكرة الاله حياته ، وان يكون أداةً في يد تلك القوة التي هي شيء غير الذات ، والتي تعمل مع ذلك في صميم الذات .

وهاكسلي لا يعقد أيما أمل على العمل السياسي ذي النطاق الواسع . ولكنه يعلق أهمية كبرى على نفوذ الجماعات الصغيرة من أهل التقوى والتجرد . وهو يعتقد ان نموذج الحياة الاجتماعية

والسياسية في المستقبل يجب ان يُلتمس في المجتمعات الصغـــيرة لا في الدول الضخمة المنظمـــة تنظيما مركزياً ؛ من اجل ذلك يؤكد هاكسلي على الحاجة الى لا مركزية سياسية واقتصادية تسمح للوحدات الصغرى بقدر اعظم من الحكم الذاتي . ولعل تحقيق مثل هـــذه الافكار الاجتماعية التي ينادي بها هاكسلي لن يتيسر في المستقبل القريب ، بل في المستقبل البعيد ، الممعن في البعد .

وألدوس هاكسلي لا يزال الى اليوم شاباً ، نسبياً . ولعل أحداً من الكتاب الذين انتهوا الى النضج في عهد الازمة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية لم يوهب كفايات أغزر واكثر تنوعاً من ألدوس هاكسلي . بـل ان أياً من هؤلاء الكتاب لم يوفق الى تحليل مشكلات العصر بأدق مما فعل هاكسلي . والواقع ان كتابه الاخير يظهر ان محاولته لفهم الحياة فهماً صوفياً قـد أبقت براعته الروائية قوية خصبة ، في حين أضفَت على تبصره وحكمته عمقاً جديداً . ومن حقنا ان نعتقد أن احسن آثاره واعظمها شأناً لمّا ترَ النور بعدُ ...

# علّم نفسك

## سلسلة كتب مبسطة لنشر الثقافة العامة

**صدر منها**

١ . كيف تكسب السعادة

للفيلسوف الانكليزي برتراند راسل .

٢ . قادة الفكر الحديث

تأليف ج . ب . كوتس

**يصدر قريباً**

٣ . علم النفس الحديث ، تأليف الاستاذ سارجنت .

# الفهرست



١٣٤/ ٤ /٥١




صدر حديثاً :

| | | ق. ل. |
|---|---|---|
| عبد الله بن المعتز | للاستاذ عبد العزيز سيد الاهل | ٣٠٠ |
| كيف تكسب السعادة | لبرتراند راسل | ١٥٠ |
| قصة السينما | للاستاذ صلاح دهني | ١٥٠ |
| غابة الكافور | « سعيد تقي الدين | ١٥٠ |
| تاريخ الشعوب الاسلامية (٥ أجزاء) | لبروكلمان | ١٦٠٠ |
| روح الحضارة العربية | ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي | ٢٠٠ |
| العروبة في ميزان القومية | للاستاذ نقولا زياده | [illegible] |
| شفتان بخيلتان | « رياض طه | [illegible] |
| سامبا (شعر) | « نزار قباني | [illegible] |
| هل الادباء بشر | للدكتور اسحق موسى [illegible] | [illegible] |
| دنيا واديان | للدكتور نقولا فياض | [illegible] |
| عبقرية ابي تمام | للاستاذ عبد العزيز سيد [illegible] | [illegible] |

الثمن ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها .

مطابع دار الكشاف - بيروت